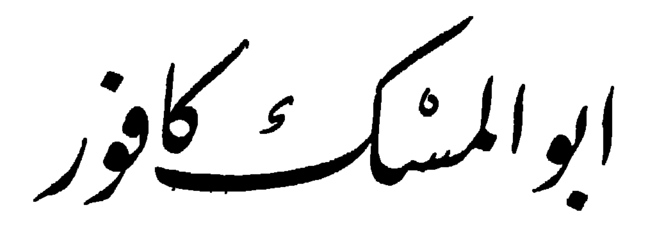
ابراهيم الأبياري



الطبعة الأولى

١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الإهــداء

إلى الذين يعنيهم ماضيهم

ليفيدوا منه فى مستقبلهم

ابراهيم الابيارى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه صفحة من تاريخ مصر الخاص ، حُسبت لها من تاريخها العام ، ومن أراد أن يعرف تاريخ مصر يجب أن يعرفه بلونيه هذين ، يعرفه بلونه الخاص ، وذلك حين تستقيم لمصر أمورها لها وحدها ، وتكون هى صاحبتها كلها ، فى تلك الحقب الطويلة التى امتدت بامتداد الحكم المصرى فى دوله الثلاث : القديمة والوسطى والحديثة ، ويعرفه بلونه العام ، وذلك حين امتزجت أمور مصر بأمور غيرها ، وعاشت يشاركها غيرها ، وتشارك هى غيرها ، مشاركة وُحدة تعطى وتأخذ ، لا ترى أنها أُخذت ولكن ترى أنها أخذت ، ترى نفسها قد كسبت القطاع العام كما قد كسبها القطاع

العام ، وأعنى بهذا القطاع العام الدولة العربية فى مجموعها .

وليس من تاريخ مصر العام تلك الفترات التى غُلبت فيها على أمرها وخضعت للفرس كما خضعت للرومان ، فتلك فترات لا شك محسوبة من تاريخها الخاص ، وإن لم يخلص لها فى تلك الفترات أمرها ، فهى لم تُعط الفرس كما لم تعط الرومان عن رضى ، ولم تدخل فى حياة الفرس كما لم تدخل فى حياة الرومان لسانا وفكراً وعقيدة ، كما دخلت فى حياة العرب لسانا وفكراً وعقيدة ، ولم تخلط حياتها بحياة الفرس والرومان كما خلطتها بحياة العرب ، ولم تنس ما لها بما للفرس والرومان كما نسيته بما للعرب ، ولم تسع لأن تجعل من حياتها مع حياة الفرس والرومان حياة واحدة كما فعلت مع العرب ، عاشت مع الغزو الفارسى ومع الغزو الرومانى أُمة مقهورة تسعى للخلاص ما وسعها السعى ، على حين استقبلت العرب تصل حبلها بحبلهم بعد أن استقبلت لغتهم ، وبعد أن استقبلت معتقدهم ، وبعد أن استقبلت فكرهم ، فإذا هى وإياهم أمة واحدة أُنسى

فيها الغالب وأنسى فيها المغلوب ، وذكر هؤلاء وهؤلاء أنهم شعب واحد تربط ما بينه روابط قديمة ، فصل الزمن ما بينها حيناً ثم عاد فربط ما بينها برباط وثيق .

ومصر التى حرصت على أن تدخل إلى هـذا التاريخ بصفحتها الخاصة لتُكتب لها بين صفحاتها العامة ، حريصة على أن يطالع شركاؤها فى هذا التاريخ ما قدّمت ، ليعرفوا كيف كان ولاؤها للتاريخ العام ، وكيف كان رضاها بهذا التاريخ العام ، وليعرفوا لها بذلها فى سبيله بذلا أُنسيت به وجودها الخاص ليسلم لها الوجود العام ، لامنًّا منها ، فما أبرأ قلب مصر عن أن يمُن ، ولكن توثيقاً لتلك الروابط التى أمسكت مصر بأطرافها ولا تزال تمسك .

وهذه الصفحة من تاريخ مصر هى كما تعنى مصر تعنى شركاء مصر فى تلك الروابط ، تعنى مصر وتعنيهم ، لأنها صفحة من تاريخهم العام .

والتاريخ عظات لأهله قبل أن يكون لغير أهله ، يعيها

الأهل ليفيدوا منها أولا ، ويعيها غير الأهل ليفيدوا منها ثانياً ، يفيد منها الأهل ليجمعوا كلمتهم ، ويفيد منها غير الأهل ليحولوا بين تلك الكلمة وبين أن تجتمع .

وإذا مرت تلك العظات ولم يُفد منها أهلها ضمّوا إلى تلك العظات عظة أخرى عليهم لا لهم ، يفيد منها غير الأهل إمعاناً فى التفريق وإمعاناً فى تشتيت الشمل .

ولقد سبقت هذه الصفحة ، التى أرّختْ لمصر فى عهد الإخشيديين فى تفصيل ، وأرخت للطولونيين فى إجمال ، صفحةٌ أرخت لمصر فى عهد الفاطميين ، استقل بها كتاب هو « خاتمة المطاف» ، وسوف تتلوها صفحة تؤرخ لمصر فى عهد الأيوبيين ، يستقل بها كتاب ، هو « البطل الخالد » .

وإنى لأرجو أن أكون بهذه الكتب الثلاثة قد جلوت حقبة من تاريخ مصر العام .

وما أردت بهذا الجلاء التاريخَ أسرده فأكرر ما قيل ، وإنما أردت أن أروى مكان العظة من هذا التاريخ ، أملى رأيى ،

قد أخطىء وقد أصيب ، وما يضير ذا الرأى أن يخطىء ، ولـكن الذى يضيره أن يسكت فلا يقول .

وإنى لأرجو أن أكون ما أخطأت فيه دون ما أصبت ، وأن أكون قد وفقت فيما عرضت ، وأن أبلغ بهذا كله ما قصدت .

ابراهيم الابيارى

(١)

لم تُبعد مصر بمكانها فى إفريقيا عن الجزيرة العربية ، إلى اليمين منها فى آسيا ، فكراً ولا رُوحا ، وكأنّ هذا البحر الأحمر حين انبسط طولا ولم ينبسط عرضاً أحبّ ألاّ يشُق على القُطرين فيزيد فى شُقة البُعد بينهما ، وكأنه حين انبسط ماء ولم ينبسط أرضاً أحبّ أن يُخالف بينهما شيئا فيُغرى أحدَهما بالآخر .

ومنذ أن رَكِب هؤلاء البحر وأولئك البحر حَطّ المصريون بسواحل الجزيرة العربية وأوغلوا ، وحطّ العربُ بالسواحل المصرية وأوغلوا .

وحين اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وهم على جاهليتهم قبل أن يبعث الله رسوله فيهم بخمس سنين ، تزيد شيئاً أو تنقص شيئاً ، كان بين أولئك القرشيين قِبطٌ بمكة يحترفون صناعات ، وكان من بينهم نَجّار وَكَل إليه القرشيون تَسقيف الكعبة .

وحين اجتمع المصريون لعيدٍ لهم كانوا يُقيمونه فى الإسكندرية يَلهون فيه ويلعبون ، فإذا ما أوشكوا أن ينفُضوا أيديهم من لَهوهم ولعبهم بَرز أبناء الأمراء يترامَوْن بكُرة بينهم ، فمن وقعت فى حجره كان مُلك الإسكندرية له .

حين اجتمع المصريون لهذا العيد ، وحين كان أبناء الأمراء فى تَراميهم بالكُرة ، كان عمرو بن العاص حاضرَهم . وكان بين النَّظارة . جاء مصرَ تاجراً مع تُجار ، وأقام فى مصر كما يُقيم التجّار ، لحين ثم يرحلون ، ومنهم من يبقون .

وكما دخل ذلك القبطى فى حياة العرب فشارك فى بناء البيت ، دخل عمرو بن العاص فى حياة المصريين فشارك فى المُلك .

فالمؤرخون يَرْوون ، ولعلهم يصطنعون هذا الذى يروون، ليُضْفوا على التاريخ مِسحة من الإغراء أحبُّوا ألا يعرضوا التاريخ دونها ، فهم يروون أو يصطنعون أن عمراً حين كان بين النظّارة يشاهد ما يشاهدون وقعت الكرة فى حجره . فهال

ذلك المصريين وخالوا أن ظنّهم كذبهم فى كُرتهم وأنكروا أن يكون ملك الإسكندرية لعربىّ طارئ .

وتمضى الأيام تحفظ لنا مثلاً يؤكد لنا تلك الصلة الفكرّية الروحية بين هذا القطر وذاك القطر ، فنسمع لها وهى تروى للمقوقس صاحب مصر إهداءه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية ، وسيرين أختها ، وغلاماً معهما خصياً هو مأبور ، وذلك سنة سبع من الهجرة .

وإذا هذا الإهداء يربط ما بين القطرين بصهر ، فيتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم مارية ، ويُولدها ابنه إبراهيم . وما عُمِّر إبراهيم غيرَ عام وبعض عام ، وما ندرى كيف كانت تجرى الأمور بين هذين القطرين ، لو عاش هذا الصغير ، غير أنه على الرغم من اختطاف الموت له فثمّة صهر لا يُنسى . ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت ابنه فقال : إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما . وذكر به الحسنُ بن على معاويةَ فجعله يضع عن أهل خفن

من كورة أنصنا — حيث ولدت مارية — خراج الأرض .

صِهر مع أشرف من دبّ على الجزيرة العربية ، يذكّيه صهر آخر لشاعر النبيّ المنافح عنه بلسانه حسان بن ثابت ، فقد أهداه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سيرين أخت مارية .

وكما ولدت ماريةُ للرسول ولدت سيرين لحسان ، ولكن ولد الرسول مات وبقى ولد حسان عبد الرحمن ، ثمرةً لهذا الصهر عُمراً طويلا .

وما ندرى متى ماتت سيرين ، ولكننا ندرى أن مارية بقيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلافة عمر ، وأنها ماتت بالمدينة ، وأنها حين ماتت رُئى عمر يحشد الناس لحضور جنازتها ، وأنها حين دُفنت دُفنت بالبقيع ، وأنها حين خلّفت الحياة خلّفت فى العالية بالمدينة مشربة تحمل اسمها ، هى مشربة أُم إبراهيم ، وما كان أولى المصريين والعرب بأن يرعَوْا لأُم إبراهيم مارية أول مكان نَزلت به ، ليرعوا صهراً كان لهم رباطا . ثم ما كان أولى المصريين أن يرعوا لأُم إبراهيم

مكانا وُلدت به ليرعوا صهراً كانت مارية سببه ، وما مثل هذه وهذه باليسير نسيانها ولا باليسير إهمالها على من يحرصـــون أن يتمثّلوا الأسباب ، وعلى من يعتزون بتلك الأسباب ، وعلى من يُحبون أن تحيا بينهم معالم تلك الأسباب ، ليلقن عنها الأبناء بأعينهم فوق ما يلقنون بآذانهم . ثم ما مِثل هذه وهذه باليسير إهمالها على من يحرصون أن يعيش بينهم تاريخهم حيًّا بعالمه .

(٢)

وحين يفتح الله على المسلمين الشام يخلو عمرو بن العاص بعُمر بن الخطاب يزيِّن له فتح مصر . يتأبّى عمر ولا ييأس عمرو ، وإذا إلحاح عمرو يغلب تأبِّي عُمر ، وإذا عمرو على رأس جيش إلى مصر ، وإذا مصر تفَتح له أبوابها ، تَمُد يداً إلى أصهار لهم هم العرب ، لتقوى بهم على الخلاص من أعداء لهم هم الروم ، وإذا مصر مع العام المُتم للعشرين من الهجرة موصولة مع أصهارهم العرب بصلات : يُصهر إليهم العرب ويُصهرون هم إلى العرب على مر الأيام ، فتتسع رابطة الإصهار ويُمازج دم دماً ، وإذا هم يشاركون العرب مُعتقدهم الجديد فتتآلف الروحان ، وإذا هم يشاركون العرب لسانَهم فيستقيم للمصريين لسانهم بما اُستقام به لسان العرب ، ويوثِّق ما بينهم هذا اللسان العربى ، وإذا هم معاً على عِلم واحد وفكر واحد ، فيجمع ما بينهم الفكر بعد ما جمع بينهم المُعتقد واللسان .

وإذا هاتان الأمتان اللتان عاشتا على صلات قليلة تعيشان على صلات كثيرة ، تختفى معها الصفات المفرقة لتحُل مكانها الصفات الجامعة ، وإذا المصريون أقرب الشعوب إلى العرب ، وإذا العرب أقرب الشعوب إلى المصريين ، وإذا مصر مَلاذ العربية حين عزّ الملاذ ، وإذا هى حاميــــة العروبة حين عزّ الحامى .

ويتعاقب على مصر الولاة بعــد عمرو ، تستقبل مصر للخلفاء ولاة هم : أبن أبى سرح ، وأبن أبى حذيفة ، وقيس ابن سعد بن عُبادة ، والأشـــتر بن مالك ، ومحمد بن أبى بكر الصديق .

ويستأثر الأمويون بالأمر فيجعلون على مصر ولاة لهم ، كلما عُزل والٍ أقاموا مكانه والياً غيره ، فإذا الولاة يبلغون العشرين يزيدون قليلا أو ينقصون ، ومصر فى كل هذا تُعطى ولا تأخذ خلال قرن وربع قرن تمكّن فيهما اللسان العربى من ألسنة أبنائها أو كاد ، وتمكّنت فيهما العقيدة من قلوب

أبنائها أو كادت ، وشاع فى رؤوسها الفكر العربى أو كاد ، ولكنها على هذا عاشت يعرفها العرب ولاية يولّون أمرها نفراً منهم ، وما حاولوا أن يعرفوها جزءاً من هذا المُلك الواحد فيولّوا أمرها نفراً من أبنائها .

وكما فعل الأمويون فعل العباسيون من بعدهم ، فحين آل إليهم الأمر ، وغلبوا الأمويين على ما غلبهم عليه الأمويون ، أخذوا يُرسلون ولاتهم إلى مصر ، وإذا ولاتهم يُجاوزون الثلاثين بقليل ، وإذا هم حين بلغوا ذلك المَدى كانت مصر قد قطعت مع العرب فى ذلك الشوط أمداً بعيداً ، وطوت مع العرب نحواً من قرنين ونصف القرن ، مكّنت فيها للسانها العربى ، ومكنت فيها لفكرها العربى ، وكادت تنسى ما لها ، لا تذكر إلا ما يتصل بعربيتها التى أُشربتها نفوسها ، ولا تذكر إلا معتقدها الذى جمع تحت ظله سوادَها .

ولكن العباسيين أنسوا هذه كما أنسيها الأمويون . وظلوا ينظرون إلى مصر ولاية ، ولم ينظروا إليها جزءاً من

تلك المملكة، لها حق المشاركة الكاملة ، فلم يلتفتوا إلى أهلها يعينون منهم والياً عليها .

والمصريون على هذا قانعون ، يعنيهم أن تمضى الأمور بما يحقق للدولة كلها الكلمة الموحدة والسيادة الشاملة ، فلقد نظروا لتلك الأمور نظرة عامة، ولم ينظروا إليها نظرة خاصة . إذقد أصبحت الدولة العربية فكرة تناهضها فكرة أخرى، ولقد عز على المصريين أن تُهزم الفكرة العربية إزاء هذه الفكرة الأخرى ، ففكروا فيما يبذلون ولم يفكروا فيما يأخذون ، يُنسيهم الغرض العام الغرض الخاص ، وإذا هم مخلصون لهذا الغرض العام ، لايَثنيهم عن هذا الإخلاص ما عساه يثور فى نفوسهم حول الغرض الخاص ، يصبرون لويلات كثيرة يصبها عليهم الولاة إن جاروا ، ويصبرون لبلبلة كثيرة يسوقها إليهم الخلفاء حين يطيشون عن القصد ، لأنهم كانوا يرون الأمر أجل من هذا وذاك ، وكانوا يرون هذا الأمر لهم كما هو لغيرهم ، لا يفصلهم عنه نظرة غيرهم

لهم . وإنما تربطهم به نظرتهم هم إليه ، فقد دخلوا إليه بتلك الأسباب التي عرفوها ، دخلوا إليه مصاهرة ، ودخلوا إليه لساناً ، ودخلوا إليه معتقداً ، ودخلوا إليه فكرا ، وأصبحوا بعد هذا كله من أصحابه ، وكانوا على هذا كله أسمى ما عرف التاريخ تضحية ، وأكرم ما عرف التاريخ نفوساً ، وأفسح ما عرف التاريخ صدورا .

ولقد كان اختيار الولاة أيام بنى أمية من بين العرب عامة ، ومن بين الموالين لهذا البيت الأموى خاصة ، أعنى من أهليهم أو من ذوى قرباهم أو ممن تربطهم بهذا البيت وشيجة ، وكان اختيار هؤلاء الولاة أيام بنى العبـاس من بين العرب عامة ، ومن الموالين لهـذا البيت العباسى خاصة ، أعنى من أهليهم أو من ذوى قرباهم أو ممن تربطهم بهـذا البيت وشيجة .

ولـكن الدولة الأموية بدأت عربية وانتهت عربية ، والدولة العباسية بدأت عربية وانتهت غير عربية .

نعنى أن الدولة الأموية بدأت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، وانتهت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، ولـكن الدولة العباسية بدأت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، ثم انتهت غير عربية محضة فى بعض من خلفائها وفى بعض من وزرائها وقادتها .

وكما أملت الدولة الأموية فى اختيار الولاة عن هـذا

الطابع العربى الخالص ، أملت الدولة العباسية فى اختيار الولاة عن هذا الطابع العربى غير الخالص ، فإذا الولاة المختارون برأى الأمويين غير الولاة المختارين برأى العباسيين ، وإذا الدولة العباسية كما انتهت آخر الأمر غير عربية خالصة ينتهى ولاتها آخر الأمر عرباً غير خُلَّص ، وإذا هذه الدولة العباسية تتعرض لمحنٍ كثيرة ، وتتعرض مصر معها لتلك المحن الكثيرة .

يمضى هذا كله ومصر صـــابرة لهذا كله ، يؤذيها ألا يُلتفت إليها فيختار واليها من بين أهليها ، ولقد كانت هذه الأعوام المئتان من بعدها خمسون كفيلة بأن تقفها فى صفّ العرب ، إن كانت العربية شرطاً للاختيار ، ثم كانت كفيلة بأن تقفها على طريق الكفاية ، إن كانت الكفاية شرطاً للاختيار ، ثم كانت كفيلة بأن تقفها فى صف الموالين ، إن كانت الموالاة شرطاً للاختيار ، ما دام قد استوى فى الولاء العربى بغير العربى .

ولـكن مصر على هذا الأذى لم تؤثر قضيتها الخاصة على قضيتها العامة ، وظلت ترى الأمر أجل من أن يحتمل فُرقة ، وأجل من أن يتعرض لانفصال ، إذ باتت القضية العربية أكثر خصوماً وأكثر عدوا وأكثر طامعاً فيها .

ولـكن الذى لم تفعله مصر فعله الولاة بمصر ، فلقد سولّت لهم أنفسهم أن يقتطعوها عن الدولة العامة فاقتطعوها ، يُغريهم بذلك طمع فى الاستئثار بالسلطان ، ويغريهم بذلك ضعف الخلفاء ، ويغريهم بذلك فوضى فى الحـكم ، اتسعّ خُرقها على الراتق ، فلقد أغرت هذه الفوضى الخلفاء بأن يكون لهم جند من غير العرب ، فاتخذوهم من الأتراك وغير الأتراك .

وكبر شأن هؤلاء الجند وكاد الأمر يؤول إليهم مع الخليفة أولا ، ثم دون الخليفة ثانياً . فلقد كانت إليهم القيادة أولا ، ثم كانت إليهم الولاية ثانياً .

وكان هؤلاء الولاة من الأتراك إذا آلت إليهم ولاية

ينيبون عليها من يثقون به ، لا يُحبون أن يُبعدوا عن مقر الخليفة حتى لا يُكاد لهم ، إذ كان الكيد شيمة ذاك العصر ، وأفسدت الدنيا على الناس قلوبهم ونفوسهم ، وباتوا لا يعرفون غير أطماعهم الخاصة ، لا يُبالون أيه سبيل يركبون .

وتؤول مصر أيام المعتز الخليفة العباسى إلى كبير من قواد الترك هو بايكبال . وما فكّر بايكبال فى أن يرحل إلى مصر يستقبل ولايته وتستقبله ولايته . ينظر إلى رعيته وتنظر رعيته إليه . يعلم عنهم ويعلمون عنه .

ولكن بايكبال آثر ، كما آثر غيره من هذا الصنف من الولاة، أن يبقى إلى جانب الخليفة يدفع ما عساه يُحاك حوله ، فبقى بايكبال حيث هو فى الحضرة لا يتحول . وما نظن بايكبال كان يفكر فى غير تُركى يُنيبه عنه على ما آل إليه من ولاية . ولقد أشاروا عليه بأحمد بن طولون . ورضى بايكبال أحمد بن طولون ، فأرسله إلى مصر لينوب عنه فى حكمها .

ويموت المعتز ويلى المهدى الخلافة ، ويقتل المهدى بايكبال ، وتصبح مصر بعد بايكبال لقائد تركى من هؤلاء القواد المقربين للمهدى ، هو بركوج .

وكان بركوج غير بعيد من ابن طولون صلة ومودة فيبقيه على مصر ويضم إليه من شئون الحكم ما لم يضمه إليه بايكبال . يصبح أمر مصر إلى ابن طولون كله . بعد أن كان إليه بعضه ، وتقوم فى مصر دولة هى الدولة الطولونية ، أمرها إلى أحمد بن طولون ثم لولده من بعده .

وتعيش مصر طولونية الصفة فترة غير طويلة ، يحكمها فيها أربعة من هذه الأسرة ، هم أحمد ، ثم ابنه خمارويه من بعده ، ثم ابنه هارون بن خمارويه ، ثم شيبان بن أحمد بن طولون ، فترة تبدأ بدخول أحمد بن طولون مصر سنة أربع وخمسين ومائتين ، وتنتهى بنزول شيبان عن الأمر سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

وتعود مصر إلى العباسيين ثانية يولّون عليها من يشاءون، وما نبّهت الأحداث الخلفاء ليلتفتوا إلى مصر يختارون من أهلها والياً عليها ، بل ظلوا على ما كانوا عليه يولونها عربيا مرة، وتركيا مرة ، وروميّاً أخرى، إلى أن يؤول أمر مصر إلى تكين الحربى ، ويليها تكين مرات أربع . كانت الأخيرة منها سنة إحدى عشرة وثلثمائة من الهجرة . ولاه الخليفة المقتدر حين أضطربت الأحوال على ابن « كيغلغ » فى مصر ، وخرج الجند عليه .

ويبقى « تكين » والياً على مصر يشهد على البعد اضطراب الأحوال فى بغداد والثورة بالمقتدر . يخلعه خادمه « مؤنس » ليولى مكانه المعتضد . ثم يثور الجند فيخلعون المعتضد ليعيدوا المقتدر إلى الخلافة . وبين هذا وذاك تذهب ضحايا كثيرة من جند وأعوان .

وكما شهد « تكين » هذا وسمع به على البعد كان يشهد

من القرب فيما حوله هذا الخلاف الذى دب بينه وبين محمد بن طغج أمير الحوف فى مصر . ثم يشهد محمد بن طغج يخرج من مصر سرا خوفاً من أن يناله أذاه . وما يكاد يهدأ « تكين » شيئاً حين تهدأ الأمور فيما حوله بعد خروج ابن طغج عنه إلى الشام ، وحين تهدأ الأمور شيئاً فى بغداد برجوع المقتدر إلى الخلافة ، وهو صاحب أمره وصاحب الفضل عليه ، حتى يقلق ثانية حين ثار « مؤنس » الخادم بالمقتدر مرة ثانية . وحين قَتل واحد من برابرة مؤنس — وكانوا عسكره — المقتدر . وما منع هذا القاتلَ قولُ المقتدر له حين رآه يُهم به رافعاً سيفه : « ويلك أنا الخليفة ! » فقال هذا البربرى القاتل : « أنت المطلوب » وذبحه بالسيف ورفع رأسه على رمح ثم جرده من ثيابه وتركه مكشوف العورة .

ولكن المقتدر ما يكاد يمضى مقتولا حتى يمضى وراءه تكين ، ولقد مات المقتدر بعد أن قضى على كرسى الخلافة

خمسة وعشرين سنة إلا أياماً قلائل ، حفظ له فيها التاريخ إسرافاً بلغ حد التبذير فى المجون والترف ، حتى ليقال إنه أنفق فى ملاذه أيام خلافته من مال المسلمين الذى ائتمنوه عليه نحوا من ثمانين ألف دينار ، نال النساء من ذلك شيء ، ونال غلمانه من الصقالبة — الذين بلغوا أحد عشر ألف غلام خصى — شيء .

وخَلَف المقتدرَ على هـذا الـكرسى المضطرب أخوه القاهر . ليلقى ما لقيه أخوه من قبله على صورة أشنع ، بعد أن قضى سنة وشهراً أسير حياة أشنع ، فلقد كان هو الآخر قبيح السيرة مدمناً للخمر أحمق ضعيفاً . وكان إذا لعبت الخمر برأسه ذهب عقله فمضى يسفك الدماء فى غير وعى ولا حذر .

والشعوب إن رعت للوالى حقه فهى ترعى لنفسها حقها . تحب الطاعة لأن نفعها لها قبل أن يكون للوالى . فتصبر للظلم حرصاً على ألا تُفسد طاعتها . وحين تصبر لهذا الظلم تُطغى الظالم . يظن صبرها استكانة فيُمعن فى إسفافه . فإذا

الشعوب ترى طاعتها انقلبت مضرة لها وللوالى . لأنها تخسر بها كما يخسر الوالى . فتثور عن كره منها لا عن رضى . إذ ما أكره الشعوب للثورة لأنها تكلفها كثيراً . وتعرّضها لبلبلة طويلة . قد يمر ردح كبير من الدهر قبل أن تستقر . وتقذف بها إلى حرج واسع قد يطول الزمن قبل أن تَسلم منه . ويفتح عليها فَتقاً من الشك والوسوسة عظيما قد يمتد به الدهر دون أن يُرتق .

ولكن القاهر كان طاغية وكان ظالماً . وكان فوق هذا شبه مجنون . من أجل ذلك كان الشعب حين ثار به طاغياً وظالماً وشبه مجنون . فسمل عينيه حتى سالتا على خديه . وتركه يحيا بينهم فردا معذباً لا خليفة هائماً .

وكان أول خليفة يُفعل به ذلك . ولقد عاش القاهر اسماً المقهور حقّاً ، على حاله تلك المؤلمة سنين طويلة كادت تبلغ العشرين ، إلى أن مات سنة أربعين وثلثمائة ، قضى بعضَ تلك الأعوام محبوساً ، وقضى بعض تلك الأعوام طليقاً

شبه محبوس .

ويترك القاهر الخلافة بعد ما لقى فيها ما لقى ليليها من بعده ابن أخيه الراضى بن المقتدر ، فيجلس على هذا الكرسى المضطرب فترة لا تطول ، وهى على قِصرها كانت مليئة بالفتن والقلاقل ، فالشعب الذى ثار بالعم لم يكن قد هدأ ليستقبل ابن الأخ هادئاً .

وما طالت الحياة بالراضى لينعم أو ليشقى ، ولكن الموت عاجله فمات فى ربيع الآخر من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، وكان قد بويع له بعد خلع عمه فى جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

وعلى هذا الكرسى المضطرب جلس المتقى أخو الراضى ، جلس عليه ليُخلع عنه فى جمادى الآخرة من العام نفسه ، وبعد أن سُملت عيناه كما سُملت عينا أخ له من قبل ، وليتركه للمستكفى ليجلس عليه سنة وأشهراً ، يتركه بعدها مخلوعاً ليجلس عليه المطيع لله . ولكن المستكفى لم يُخلع إلا بعد أن

سُملت عيناه، و بعد أن سُملت أعين أخوين له من قبل ، وكان ثالث خليفة سُملت عيناه .

ويثبت هذا الـكرسى للمطيع أعواماً بعد أعوام ليشهد أحداثاً بعد أحداث ، إلى أن ثقلت به العـلة ، فخلع نفسه وأسـلم الأمر إلى ابنه القانع ، بعد ما ذرع ثلاثين عاماً قضاها خليفة .

ولقد حدثناك حديث محمد بن طغج حين كان أميراً على الخوف فى مصر ، وحين فسد ما بينه وبين تكين ، وحين خرج من مصر بعد ما فسد ما بينه وبين تكين خائفاً يترقب يقصد الشام .

ولقد لبث محمد بن طغج بالشام ، لبث بها أعواماً تكاد تتم أربعة ، فلقد خرج من مصر سنة سبع عشرة وثلثمائة ، وبقى بها إلى أن مات تكين سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . وخلت السبيل أمام ابن طغج ليعود إلى مصر والياً . فسعى سعيه لدى القاهر ليوليّه إياها . ولم يعدم من يزكيه لدى القاهر . إذ كان لجده ماض ملحوظ ستعرفه بعد قليل فولاّه القاهر مصر .

ولكن الطمع الذى امتلأت به قلوب الولاة لم يفرغ منه قلب تكين . فلقد كان بمصر مشغولا منذ أن ولاه المقتدر

إياها سنة سبع وتسعين ومائتين . وبقى عليها والياً خمس سنين . ما قصر فى استرضاء الخليفة يُهدى إليه ويناصره . ولكنه قصر فى استرضاء مؤنس الخادم . ولم يكن مؤنس عندها هيناً أمره . فإذا هو يكيد له عند المقتدر . وإذا المقتدر يعزل « تكين » . وإذا مؤنس فى مصر طامع يريدها له ولاية . وحَسِب أنه غالب عليها الخليفة . فأقام بمصر بعد عزل تكين لا يبرح . يحمل الناس على الدعاء له ويلقب نفسه بالأستاذ . غير أن المقتدر لم يهمله ليمكن لنفسه فيما أراد . فولى مصر ذَكا الرومى .

ورأى تكين ما يغلب به الطامعون فلم يُهمل نفسه مما يغلب به الطامعون . ولبث إلى جوار الخليفة يسعى ويترقب . يطمع فى أن يحمل الخليفة على عزل ذكا الرومى . وحين لم يفلح لم ييأس ولبث يسعى ويترقب . فإذا القدر الذى مكّن لمؤنس يمكن له . ولكن على صورة غير التى مكن بها لمؤنس . فلقد مات ذكا الرومى بعد سنين أربع

قضاها واليا على مصر ، وإذا تكين يعود إلى مصر واليا للمرة الثانية سنة سبع وثلثمائة ، غير أن مؤنسا الخادم كان لتكين بالمرصاد ، فلقد عد رجوعه إلى مصر خذلانا له ، وما كان مؤنس بالرجل الهين ، فإذا هو يسعى سعيه لدى المقتدر ، وإذا هذا السعي يطول شيئا ولكنه ينتهي آخر الأمر بالنّجح ، وإذا تكين معزول عن مصر بعد أن قضى عليها واليا عامين .

وما أراد مؤنس مصر هذه المرة له . فلقد جرب حظه فى الأولى فلم يفلح وخرج من مصر سالما . وخاف أن يُجربه فى الثانيه فلا يفلح وقد لايخرج من مصر سالما . فدفع لهذا الأمر غيره . وحَسْبه أن يكيد لتكين . وحسبه أن يهزم تكين . وإذا مصر تستقبل أبا قابوس واليا عليها بعد تكين . غير أن المصريين كانوا يحبون فى تكين أشياء كثيرة :

أحبوا فيه ورعه . فلقد كاد يرتفع إلى طبقة المحدثين ، إذ حدّث عن القاضى يوسف وغيره ، وأحبوا فيه هيبته فلقد كان مهيبا ذا وقار . وما أعلق القلوب بكل ما هو جليل

وبكل ما هو مَهيب . وأحبوا فيه فضله . فلقد كان ذا خُلق وذا مبدأ ، وما أثبت الناس على حب من يثبتون على رأيهم وعلى مبادئهم .

من أجل هذا الحب الذى انطوت عليه قلوب المصريين ثارت تلك القلوب لعزل تكين . وضيق الجند الخناق على أبى قابوس وهوّنوا من شأنه . ولم يفلح أبو قابوس كما لم يفلح مؤنس الخادم الذى عرّض أبا قابوس لتلك المهانة . لم يفلح هذا ولا ذاك فى أن يُعيدا الأمن إلى نصابه ولا فى أن يردّا المصريين إلى قبـــول ورضى . والذى لا شك فيه أن ثورة المصريين كانت عنيفة عُنف حبهم لتكين يدلنا على ذلك أن هذا الوالى أبا قابوس لم يستطع البقاء فى ولايته أكثر من أيام ثلاثة . واذا هو بعدها ناج بنفسه خارج من مصر ليفسح السبيل أمام تكين ليعود الى مصر واليا عليها للمرة الثالثة .

ولكن مؤنسا على هذا لم يهدأ وبقى يكيد لتكين . واحتال فأوهم الخليفة بما سيكون فى مصر من فتنة إن بقى

تـكين فيها . وجازت هذه الحيلة على الخليفة . فإذا هو يأمر بإخراج تـكين إلى الشام فى جمع كبير من أهل الديوان . وإذا هو يولى على مصر هلال بن بدر مكان تـكين .

ولـكن تـكين — كما قلت لك — قد أحب مصر وأحبته مصر ، ومن أحب لا يهدأ حتى يحقّق ما يحب . يستهين بالعقبات ولا يأبه للصعاب ولا يخـــاف النذر ولا يثنيه الإبعـاد . فمضى يسعى . وقد جرب السعى فلم يخنه السعى . فامتلأ ثقة ولم يغتر . ولبث يترقب فإذا مصر لا تستقيم لهلال بن بدر كما لم تستقم لأبى قابوس ، ولـكن أبا قابوس خرج عن مصر بعد ثلاثة أيام من ولايته مطرودا وخرج عنها هلال بن بدر بعد عامين من ولايته معزولا .

وما كاد تـكين يفرح بعزل هلال حتى اهتم بتولية أحمد بن كيغلغ . فرح حين عُزل هلال لأنه ظن أن الأمر سيؤول إليه . واهتم حين ولى أحمد بن كيغلغ لأنه ظن أن الأمر قد خرج من يديه . ولـكن تـكين يحب مصر وتحبه مصر — كما قلت لك — فلم ييأس ولبث يترقب . وكان تـكين

كبير الثقة فى المصريين يعرفهم على الولاء له .

وما كذب المصريون تكين ولا كذب تكين ظنّه بالمصريين ، فإذا المصريون يثورون بابن كيغلغ كما ثاروا بأبى قابوس ، وإذا المقتدر يخضع لهذه القوة الثائرة فيعزل ابن كيغلغ كما عزل أبا قابوس من قبل ، خضوعاً لتلك القوة الثائرة .

ولقد عرف المقتدر أن المصريين حين ثاروا بأبى قابوس كانو يطلبون تكين فأجابهم إلى ماطلبوا ، ولقد علم المقتدر أن المصريين حين ثاروا بابن كيغلغ كانوا يطلبون تكين فأجابهم إلى ما طلبوا .

وعاد تكين إلى مصر ليلى أمرها للمرة الرابعة .

وتطول ولاية تكين على مصر هذه المرة ويبقى والياً عليها تسع سنين ، من سنة اثنتىعشرة وثلثمائة إلى أن مات فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة .

وهكذا شُغف تكين بحب مصر ، وهكذا عنّاه هذا

الشغف كثيراً ، فما إن وليها للمرة الرابعة وطالت بها إقامته حتى فكر فى أن تكون له ولولده من بعده . فإذا هو يوصى لابنه محمد ، لا يريد أن يجعل الأمر للخليفة يولّى عليها من يشاء . وإنما يريد أن يجعله له هو يولى عليها من يشاء ، يملى عليه هذا الحب لمصر الذى عرفت مكانه من قلب تكين ، فإذا هو حين همّ أن يودع الحياة يجعلها لابنه .

ولقد مر بك أن القاهر ولّى محمد بن طغج مصر بعد موت تـكين ، ولـكن مصر كما علمت كان كرسى الولاية فيها مشغولا بابن لتـكين ، كان غير وال بل متغلّب على الولاية ، عهد بها أبوه إليه وما عهد بها إليه الخليفة ، كما مرّ بك .

ومضى ابن تـكين يحكم ، يعينه على ذاك الحكم المغتصب صاحب الخراج محمد بن الحسين الماذرائى . وبقى محمد بن طغج بدمشق لم يدخل مصر ، يُدعى له على منابرها وهو مُقيم بدمشق .

وما استمتع ابن طغج بهذه الولاية الرسمية غير اثنين وثلاثين يوماً ، ثم عزله بعدها القاهر وولى مكانه أحمد بن كيغلغ .

وكانت الحرب بين الوالى الجديد وبين ابن تـكين ، وكما اجتمع الناس حول ابن تـكين ، انفضوا من حوله

ليجتمعوا حول ابن كيغلغ، وإذا ابن تكين قليل من بقوا معه . وإذا ابن كيغلغ كثير من اجتمعوا إليه . وإذا ابن تكين يرى أمره فى إدبار ، فيعزم على الفرار، ويخرج من مصر ليلا . وإذا ابن كيغلغ يرى أمره فى إقبال فيعزم على الدخول ، ويخرج والٍ ليدخل والٍ .

وما تم هذا فى يسر . فلقد كان عسيراً على الخارج خروجه . كما كان عسيراً على الداخل دخوله ، ولكن الشيء الذى مرّ أعسرَ من هذا ومن ذاك ما ذاقه المصريون فى هذه الفتنة وفى هذه الحروب من أجل الفتنة ، فلقد قتل منهم كثير ، وعذب منهم كثير .

ولكن هذا الخارج حين خرج لم يفقد الأمل ، وهذا الداخل حين دخل لم يطرح الوجل ، فحين خُلع القاهر ووُلّى الراضى — فى ذلك الحديث الذى مر بك — رجع ابن تكين إلى مصر يدعى أن الراضى ولاّه .

وهكذا كانت تجرى الأمور تُعليها روح السلب وروح

الاغتنام ، من ظفر غلب ، ومن احتال كسب ، ليس ثمة نظام وليس ثمة حكم يرعى .

ولكن المصريين كانوا فى ظل هذه الفوضى الضارية يملكون أمرهم ، ويملكون أسباب النظام ، طاعتهم لصاحب الأمر وإن جار ، لا يبيعون تلك الطاعة بقليل أو كثير ، لأنهم كانوا أحرص ما يكونون على أن يتهيأ للدولة فى ظل الوحدة والكلمة المجموعة شىء من الخير ، وكانوا أحرص ما يكونون على أن تبقى الكلمة للخليفة لا يحبون أن ينفكوا عنه .

وما ثاروا على أبى قابوس إلا لأنهم رأووا الخليفة مغلوباً على أمره حين عزله ، وأن الذى قضى بذلك مؤنس الخادم لا الخليفة . وهم حين رأوا ابن تكين لا يلى أمرهم باسم الخليفة نفضوا أيديهم من طاعته ، مع حبهم لأبيه وحربهم من أجله ، وحين رأوه يدخل عليهم مصر بدعوى كاذبة لم ينطق بها الخليفة ولم يقلها انضموا إلى من ولاه الخليفة

وتركوا من لم يولِّه ؛ فحاربوا مع ابن كيغلغ ولم يحاربوا مع ابن تكين .

ولقد خرج ابن كيغلغ لقتال ابن تكين ، حين رجع إلى مصر يطلبها باسم تلك الدعوة المزيفة ، وهزموه وأسروه وجاءوا به أسيراً إلى ابن كيغلغ ، فنفاه ابن كيغلغ إلى صعيد مصر .

غير أن الأمور ما كادت تصفو لابن كيغلغ حتى التبست عليه ، فإذا الراضى الذى ادعى ابن تكين أنه ولاّه مصر زوراً ، يعزل ابن كيغلغ حقّاً ، وإذا كتاب الخليفة يأتيه بالعزل وولاية محمد بن طغج .

وكانت كبيرة على نفس ابن كيغلغ ، فخرج للقاء ابن طغج فى جيش كثيف ، وإذا بينهما حرب ، عسكر ابن كيغلغ فيها جموع من المصريين ، وعسكر ابن طغج فيها جموع من الوافدين .

وإذا الحرب تدور ، ولكنها حين دارت لم تلبث غير

قليل حتى تكشفت عن هزيمة ابن كيغلغ ونصر ابن طغج.

وما انهزم المصريون عن ضعف، ولكنهم كانوا كما قلت لك يدينون للخليفة بالطاعة، ولا يحبون أن يخرجوا عن هذه الطاعة، لأنهم كانوا يؤثرون القضية العامة على القضية الخاصة. وما أشك فى أنهم خرجوا لهذه الحرب مكرهين، وقاتلوا مكرهين، من أجل ذلك لم يمضوا فى الحرب طويلا.

وحين أدرك ابن كيغلغ إفلات الأمر من يديه أسلم الأمر إلى ابن طغج، وأخذ يعتذر إليه بأنه ما أراد حربه ولكن المصريين خرجوا لحربه بغير إرادته.

هكذا اعتذر ابن كيغلغ لابن طغج. يريد أن يغرى صدر ابن طغج على المصريين، وما أظنك يغيب عنك لمَ أراد ابن كيغلغ هذه، وما أظنك تؤمن أن المصريين كانوا يقوون على الخروج للقاء ابن طغج قهراً عن ابن كيغلغ، وما أظنهم

حين خرجوا قهراً عنه قهروه على الخروج على رأسهم .
ولكنهما كلمة جاءت على لسان ابن كيغلغ لتدلك على صدق
ما ادعيته أنا للمصريين ، وأنهم حين خرجوا على ابن كيغلغ
لخروجه على الخليفة كاد لهم ابن كيغلغ ، يريد أن يوقع بهم
وأن يعرضهم لبلاء شديد .

ولقد آن لك أن تعرف مزيداً عن الإخشيد محمد بن طغج قبل أن نأخذ في حديثه والياً على مصر ثم صاحب دولة .

والمؤرخون ينسبون ابن طغج هذا إلى فرغانة — كورة فيما وراء النهر متاخمة لتركستان — ويزيدون فيقولون : إنه من أولاد ملوكها مستأنسين بلقبه الذى كان له : «الإخشيد» إذ هو لقب ملوك فرغانة ، كما كان « أصبهبذ » لقب ملوك طبرستان ، و « صول » لقب ملوك جرجان و «خاقان» لقب ملوك الترك ، و «الأفشين» لقب ملوك أشروسنه و « ساما ن » لقب ملوك سمرقند ، و «قيصر» لقب ملوك الروم ، و كسرى » لقب ملوك العجم ، و « النجاشى » لقب ملوك الحبشة ، و « فرعون» لقب ملوك مصر . ويتبعون هذا فينسبونه قائلين هو : « محمد بن طغج بن جف بن بلتكين بن فوران بن مورى ، أبو بكر الفرغانى التركى » .

ولا يعنينى من هذا كله غير أنه واحد من هؤلاء الأتراك

الذين دخلوا على الدولة العربية مع من استجلبهم الخلفاء جنداً لهم ، لما أن فسد ما بينهم وبين الشعب وباتوا يخشون هذا الشعب الذى خلافتهم إليه ومنه ، وخالوا أنهم حا كموه بالمأجورين من غيره ، فإذا هم والشعب محكومان بهؤلاء المأجورين ، وإذا ماأرادوه لأنفسهم من حماية على أيدى هؤلاء المأجورين كان أول من انتهكها هؤلاء المأجورون ، وإذا هم حين أرادوا أن يأمنوا خافوا ، وحين أرادوا أن يعزّوا بهؤلاء على الشعب صغروا بهؤلاء فى أعين الشعب ، وإذا هم قد عرضوا أنفسهم والشعب لمحن كثيرة .

نعم . لقد كان الإخشيد واحداً من هؤلاء ، وكان المعتصم قد جلب إليه من فرغانة جملة ، وكان جف فيمن قدموا من هؤلاء الفرغانيين .

ولقد أفسح المعتصم لهؤلاء المجلوبين صدره ، وعدهم جنده الذين بهم يقوى على أهله ، وأقطعهم قطائع بسُر من

رأى ، ولقد بقيت لجف قطائع تحمل اسمه بسر من رأى إلى أمد طويل بعد وفاته .

وعاش جف بسُر من رأى خلافةَ المعتصم ثم المتوكل إلى أن مات ، وكان موته ليلة قُتل المتوكل ، ابن المعتصم سنة سبع وأربعين ومائتين ، قتله مماليك أبيه الأتراك بإيعاز من ابنه محمد المنتصر ، إذا كان أبوه المتوكل أراد إقصاءه عن ولاية العهد .

وحين مات جف وقتل المتوكل ، لم يجد أبناء جف في ظل المنتصر ، قاتل أبيه المتوكل ، ما كان يجده أبوهم جف عند المعتصم ثم المتوكل ! بل لعلهم وجدوا شيئاً يخيفهم ويحذرونه ، لما كان لأبيهم من صلة وثيقة بالمتوكل بعد المعتصم .

من أجل ذلك خرج أولاد جف يلتمسون الحياة في غير بغداد وفي ظل رجل غير المنتصر ، فاتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون ، ووصله هذا بأحمد بن طولون

صاحب مصر ، فكان من قواده ، و بقى كذلك إلى أن مات أحمد بن طولون ، فضمه إليه أبو الحسن خمارويه بن طولون ، وبقى مع خمارويه إلى أن قتل خمارويه سنة اثنتين وثمانين ومائتين . عندها عاد طغج إلى المكتفى بالله ، وكان المكتفى بالله على نمط آباء له مكتفياً بغير الله ، وبغير أهله ، فقربه إليه وخلع عليه .

وكان وزير المكتفى عند ذاك العباس بن الحسن ، وكان هذا الوزير ذا كبر وذا غطرسة ، يحب أن يرى الناس من حوله أتباعاً مُلجؤون إليه ،وكما أراد هذا للناس أراده لطغج ، ولكن طغج لم يكن ممن يرضون هذا الذى رضيه الناس .

وحين أحس العباس هذا من طغج أغرى به المكتفى ، والملوك إما أن يملكوا أمرهم كله ، وإما أن يفقدوه كله . مع رجالهم والمحيطين بهم . وكان المكتفى قد فقد أمره كله مع العباس ، فما إن أغراه بطغج حتى استجاب له ، فإذا هو يمسك بطغج ويمسك بابنه محمد ، وإذا هو يودع الوالد

والولد السجن ، وهو الذى استقبل الوالد والابن منذ قليل بالإجلال والإكبار .

وما قوى طغج على السجن فمات فيه ، وبقى الولد محبوساً مدة إلى أن أتاح الله له من يشفع فيه عند الخليفة ، فأطلق سراحه وخرج من السجن منعماً عليه .

ولكن الابن لم يَنْس ثأره ولا ثأر أبيه عند العباس ، فما زال يترصده حتى رآه مقتولا على يد الحسين بن حمدان ، عندها اطمأنت نفسه وشفى حقده .

ولكن ابن طغج خاف ما فعل وخاف معه أخوه عبد الله ، فخرجا فارين ، عبيد الله إلى ابن أبى الساج ، ومحمد إلى الشام ، وأقام محمد مختفياً فى البادية سنة . ثم اتصل بأبى منصور تكين ، فكان من أجلّ أعوانه ، وبقى معه إلى أن فسد ما بينهما ، كما مر بك ، وخرج عن مصر وعن تكين هارباً إلى الشام .

ولقد كان لابن طغج محمد شأن أى شأن مع الذين

كانوا يقطعون الطريق على الحُجاج ، أيام كانت عمان وجبل الشراة لتكين ، ذاع بهذا الشأن صيته حتى بلغ الخليفة المقتدر ، حدثته به عجوز كانت فى الحج ، فأنفذ الخليفة المقتدر إلى ابن طغج خلعة وزاد فى رزقه .

ولقد ذكَّر الخليفةَ بهذه محمد بن طغج حين خرج عن ابن تكين فارا ، وذكرها له الخليفة فولاه الرملة ثم ولاه دمشق ، فلم يزل بها إلى أن ولاه القاهر مصر سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، بعد موت تكين ، كما مر بك .

وهكـذا خلصت مصر ولاية لمحمد بن طغج بعد هذا الـكفاح الطويل الذى مر بك . ولقد دخلها محمد بن طغج يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة .

ولاه إياه الخليفة الراضى. ويقولون: إن الخليفة الراضى هو الذى لقبه هذا اللقب « الإخشيد » . لم يحمله معه « جف » جد محمد بن طغج من « فرغانة » حين خرج منها إلى بغداد وإنما منحه إياه الراضى فيما يقولون .

والذين يقولون إن الراضى لقّبه به سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، أى بعد نحو من أربع سنين من ولاية ابن طغج مصر . يدلوننا على شىء ، يدلوننا على أن الراضى كان راضياً عن محمد بن طغج مكرماً له .

وما خفى على الراضى معنى هذا اللقب حين لقب به محمد بن طغج ، فلقد كان يعلم أنه لقب ملوك « فرغانة »

ولعل الراضي حين لقّب محمد بن طغج هـذا اللقب كان يريد أن يؤمن الناس بما آمن هو به حقاً أو باطلا ليجمع الناس على تبجيل ابن طغج والتمكين له في القلوب .

وما إن عُرف محمد بن طغج بهذا اللقب حتى دُعي به له على المنابر ، وحتى اشتهر به فدعاه الناس بهذا اللقب ، وأنسوا اسمه ، وأصبح هذا اللقب علماً عليه ، يقول الناس : الإخشيد ، ولا يقولون : محمد بن طغج .

وهكذا بدأت الأحوال تخدم محمد بن طغج حين ولى مصر ، وبدأت تمهد السبيل أمامه إلى شوط بعيد . وما كان محمد بن طغج رجلا خاملا لا يفيد من الظروف المتاحة له ، بل لقد كان يقظاً وكان حازماً وكان مدبراً ، وكان بعد هذا كله ينظر نظرة بعيدة إلى هذا الأفق البعيد . ومن مَلك الحزم واليقظة والتدبير ملك أن يحمى نفسه ، ويمهّد لأمله ويحوطه بما يضمن له التحقيق . من أجل ذلك التفت محمد بن طغج إلى جنده يكرمهم ويؤثرهم على من سواهم ، ويسبغ عليهم من

فضله وإحسانه ، إذ هم عُدته التى سوف تثبِّت له ما يريد تثبيته ، والتى سوف تحقق له ما يريد تحقيقه ، إن هم كانوا معه على الشوط ضَمن هذا الشوط ، وإن هم تخلفوا معه عن المضى فى هذا الشوط تخلف هو ولم يبلغ ما يريد .

عرف ابن طغج هذه الحقيقة فلم يقصر فى حق جنده ، بل لقد جاوز ما يفعله مثلُه إلى غيره ، حتى تعلق به جنده وأُصبحوا به مغرمين .

ولعل شيئاً آخر قَرّب ما بين الجند وبين محمد بن طغج ، إذ الجندية فيما سلف كانت تحيا على الشجاعة والفتوة والإقدام ، وكان مَنْ يُعرف بهذا يُغْرَى الناسُ به إكباراً وإجلالا ، وينال صاحبه بين أنداده من الجنود أمثاله ألوانا كثيرة من التأييد ، وألوانا كثيرة من النصرة ، ولقد كان محمد بن طغج قويا جلداً عنيفاً فى تلك القوة كل العنف ، لا يكاد يجر قوسه التى يرمى بها غيرُه ، فلعل تلك الصفة ، صفة القوة التى تميز

بها ابن طغج ، هى التى مكنت له فى قلوب جنده وجمعت جنده على إكباره .

بهؤلاء الجند الذين لفهم حوله ابن طغج والتفوا هم حوله استطاع ابن طغج أن يقضى على تلك الثورة التى أثارها عليه ابن كيغلغ وأصحابه ، كما استطاع أن يقضى على الفتنة التى تحركت بتحرك جموع القائم بأمر الله ، ابن المهدى عبيد الله العبيدى ، من برقة يقصدون مصر ، يغريهم بذلك أصحاب ابن كيغلغ الذين فروا من مصر عقب هزيمتهم الأولى ، كما استطاع ابن طغج بهؤلاء الجند أن يلقى ابن رائق الخارج على الخليفة فى العريش ، حين قصد ابن رائق إلى مصر .

غير أن الاثنتين الأوليين مرتا وابن طغج سيدهما وصاحب الأمر فيهما ، أعنى تلك المعركتين اللتين كانتا بينه وبين ابن كيغلغ ثم بينه وبين القائم بأمر الله بن المهدى ثانياً . أما هذه المعركة الثالثة التى كانت بين ابن طغج وبين ابن رائق فلقد دارت فيها الدائرة على ابن طغج مرة ، ثم

دارت فيها الدائرة على ابن رائق مرة ، ولقد قتل الحسين ابن طغج ، أخو محمد بن طغج فى هـذه المعركة ، وانفصل المعسكران بعد أن تصالحا ، ومضى ابن رائق إلى الشـام ، وعاد ابن طغج إلى مصر .

والمؤرخون يروون أن ابن رائق حزن لمقتل الحسين بن طغج ، وأنه أخذه فكفنه وحنطه وأنفذ معه ابنه مزاحماً إلى ابن طغج ، وأرسل معه كتاباً يعزيه فيه ويعتذر إليه ويقسم له أنه ما أراد قتله ، ولقد أرسل مع هذا الـكتاب ابنه مزاحماً إلى الإخشيد ليفتديه بأخيه الحسين إن أحب .

ولقد أرضى الأخشيدَ هذا الذى فعله ابن رائق ، فتلقى مزاحماً بالترحيب ، وخلع عليه ورده إلى أبيه .

واصطلح القائدان على أن ينزل ابن رائق للإخشيد عن الرملة ، وعلى أن يحمل الإخشيد إلى ابن رائق فى كل سنة مائة وأربعين ألف دينار ، وعلى أن يكون سائر الشام فى يد ابن رائق .

ولكن الذى خسره ابن طغج حرباً كسبه قضاء وقدراً ، فلقد قتل ابن رائق فى معركة كانت بينه وبين بنى حمدان بالموصل ، وما إن انتهى هذا إلى ابن طغج حتى شمر على رأس جنده إلى الشام فضم دمشق إليه .

(٨)

وقبل أن أمضى فى وصلك بالدولة الإخشيدية بمصر ، ثم وصلك بأبى المسك كافور ، أحب أن أذكّرك بأشياء .

أحب أن أذكرك بأن ثمة دولة قامت فى مصر قبل الدولة الإخشيدية ، وهى الدولة الطولونية ، اقتطعت مصر لها من الدولة الإسلامية العامة نصف اقتطاع ، أعنى أنها جعلت مصر لها يليها الابن عن الأب دون أن يدخل الخليفة العباسى فى شىء من ذلك ، فملكت بذلك النصف الحقيق ، ثم ظلت تلك الدولة تدعو للخليفة العباسى على المنابر ، تقرن اسمه باسم السلطان الطولونى ، فنزلت بذلك عن النصف الاسمى ، والخلفاء العباسيون على ذلك راضون ، لأنهم كانوا ضعفاء مختلفين ، وكانت الدولة العامة ضعيفة بضعفهم مختلفة باختلافهم ، فلم يقو الخلفاء ، ولم تقو الدولة على غير هذا الرّضى .

وأحب أن أذكرك أنه حين اختلف الطولونيون على

أنفسهم ، وقَتل شيبانُ بن أحمد بن طولون ابنَ أخيه هارونَ ابن خمارويه ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ليظفر بسلطان مصر دونه ، أيقظ ذلك الخلافةَ العباسية الغارقة فى سبات من الضعف ، وأيقظ ذلك الطامعين من القواد حول الخليفة الضعيف المستسلم لمن حوله ، فإذا محمد بن سليمان الكاتب يدخل مصر ويقبض على شيبان ، ويقبض على كل من تربطه بالطولونيين صلة من قرابة أو عون ، لينفيهم جميعاً عن مصر إلى بغداد على أقبح وجه ، وإذا الدولة الطولونية أثر بعد عين ، وإذا أهلها مشردون ، وإذا دورهم وما شيدوا من ميادين وقصور خراب تنعى من أقامها وبناها ، وإذا مصر تعود بنصفيها الحقيقى والاسمى إلى الخليفة العباسى ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

وأحب أن أذكرك بشىء قدمته عن طغج أبى الإخشيد محمد بن طغج فى ظل هذه الأسرة الطولونية ، أجمله شيئاً وأزيد فيه شيئاً ، فلقد خدم طغج خمارويه ، وخرج على ابنه

أبى الجيش ، وكان طغج عنـدها أميرا لأبى الجيش على دمشق ، لأنه لم يكن يراه أهلا لذلك ، وكان يميل مع المائلين إلى تولية نصر بن أحمد بن طولون ، وحين قَتل أبو الجيش عمهٔ نصر بن أحمد بن طولون قوى طغج فى خلافه على أبى الجيش مع المخالفين عليه . وما إن قُتل أبو الجيش وآل الأمر إلى هارون حتى استعمل هارون على دمشق طغج بن جف . ولقد بقى على الشام والياً للطولونيين ، وحين قَتل شيبانُ بن أحمد بن طولون ابنَ أخيه هارون ، كان طغج من الناقمين على شيبان ، وكان طغج فيمن أعان محمد بن سليمان على الدخول إلى مصر يؤيده بما يملك .

وأحب أن أذكرك أن محمد بن سليمان حين خلا له الأمر فى مصر وخلص من الطولونيين رغب فى أن يخلص من هؤلاء القواد والأمراء الذين كانت لهم سابقة مع الطولونيين، لا يعنيه أنهم أعانوه وخرجوا معه عليهم ، ولكن تعنيه أطماعهم التى قد تكون موصولة بأطماع الطولونيين ، ويعنيه

أنهم قد يذكرون ما قدموا له من عون فيدخلون به إلى أطماعهم ، فينتقضون عليه ويحركونها فتنة جديدة .

ولكن محمد بن سليمان لم يُسفّ مع هؤلاء القادة الخارجين على الطولونيين إسفافه مع غيرهم ممن لم يخرجوا عليهم ، ولكنه كما أبعد الطولونيين ومن ينتمى إليهم عن مصر أبعد هؤلاء عن مصر . أبعد الطولونيين والمنتمين إلى الطولونيين إبعاد تشريد ، وأبعد هؤلاء الخارجين على الطولونيين والمنضمين إليه إبعاد تكريم ، فولى طغج بن جف واليا على قنسرين ، وولى بدرا الحمامى واليا على دمشق ، يريد بذلك أن يأمن الأمن كله ، يدبر لأمره بما أوتى من عقل وفطنة ودهاء ، والقدر وراء هذا العقل وتلك الفطنة وذلك الدهاء .

وأحب أن أذكرك أن محمد بن سليمان هذا الذى أراد أن يخلص له أمر مصر ، أو أن يخلص أمر مصر للخليفة العباسى المكتفى ، بعقله وفطنته ودهائه ، لم يستطع أن يمضى

يُعد فى إقامته على مصر أكثر من أشهر أربعة ، أُخرج عنها بعدها ليليها عيسى بن محمد النوشرى . فلقد أراد ابن سليمان ، وأراد غير ابن سليمان ممن هم محيطون بالخليفة من ذوى الأطماع ، فإذا إرادة ذوى الأطماع تغلب إرادة ابن سليمان ، فيخرج عن مصر مقطوعاً عليه أَمله مُصاباً فى أعز أمانيه .

وأحب أن أذكرك أن النوشرى أقام والياً على مصر خمس سنين ، ثم توفاه الله ، وإذا مصر يليها أبو منصور تكين ، ولاه إياها المقتدر ، وكانت تلك ولايته الأولى على مصر ، وأنه بقى فيها خالياً خمس سنين . ثم عزل عنها ووليها بعده ذكا الرومى أربع سنين ، بعدها عاد تكين ليلى مصر الولاية الثانية سنتين ، ثم ليعزل عنها بعد هاتين السنتين ليليها أبو قابوس أياماً ثلاثة ، خرج بعدها عن مصر بعد ثورة المصريين به — كما مر بك .

ولكن تكين لم يعد إلى مصر وإنما عاد إليها هلال بن بدر ليليها سنتين ، يليها بعده ابن كيغلغ عاما وبعض عام ، ثم

يعود تكين ليلى مصر الولاية الثالثة تسع سنين .

وأحب أن أزيدك بعد هذا الذى أحببت أن أذكِّرك به أن طغج بن جف كان له من الأولاد سبعة ، كان أكبرهم محمد بن طغج ، وأن محمداً هذا كان أبوه يستخلفه على دمشق حين يغيب عن دمشق . وحين مات أبوه وصل محمد حبله بحبل عامل الخراج على الشام أحمد بن بسطام ، وكان له نعم العون فى خرجاته إلى الصيد ، حتى غلب عليه اسم « بازيار » ، أى الذى يحمل على يده جوارح الطير التى كانوا يستعينون بها على الصيد .

وحين ولى ابن بسطام خراج مصر صحبه محمد بن طغج إليها . وحين مات أحمد بن بسطام ، وقام ابنه علىّ بولاية الخراج على مصر من بعده ، ظل محمد بن طغج موصولا حبله بحبل الابن ، كما كان موصولا بحبل الأب ، وحين عزل الابن عن خراج مصر ورحل عنها بقى محمد بن طغج بها ، بعد أن

وصل حبله بحبل تكين واليها ، وتوثقت صلته به حتى أصبح منه بمثابة الابن من الأب .

وأحب أن أزيدك بعد هذا أن تكين حين عزل عن مصر فى ولايته الأولى وولى دمشق أناب عنه محمد بن طغج فى عمان ، ثم كان هذا الحادث الذى مر بك حين قضى محمد ابن طغج على قُطّاع الطرق ، فلفت الخليفة المقتدر إليه ، وخلع عليه المقتدر وزاد فى رزقه .

وحين عاد تكين إلى ولاية مصر فى ولايته الثانية رأينا ابن طغج يلى الحوفين الشرقى والغربى فى مصر ، قلّده إياهما تكين .

ولكن هذا الصفاء الذى جمع بين تكين وابن طغج لم يلبث أن فسد ، أفسده ابن طغج أولا بأطماعه ، حين استولى على تركة والى الإسكندرية أبى اليمن أحمد بن صالح بعد وفاته ، ولم يُرض هذا تكين فغضب وأساء الظن بمن كان يتخذه ابنا ، وما ترك المحيطون بتكين والناقمون على

ابن طغج الأمور لتستقيم بينهما بل لقد مكنوا لهذا الخلاف ليزداد ، وإذا الرجلان يحذر أحدهما الآخر ، يدبر ابن طغج لأمره على خفية دون أن يعلن شيئاً ، ويدبر تكين لأمره على خفية دون أن يعلن شيئا ، فلقد كان ابن طغج ولىّ نعمة وما يحب أن يشيع عنه أنه كافر بهذه النعمة ، وكان تكين قد جرى فى نقته بابن طغج إلى شوط بعيد ، وما كان باليسير عليه أن يرتد عن هذا الشوط فى يوم وليلة .

وهكذا بقى الرجلان يخشى هذا ذاك ، ويخشى ذاك هذا ، وإذا مؤنس الخادم الذى عرفت بغضه لتكين يعيّن محمد ابن جعفر القرطى على خراج مصر ، بعد أن يصرف عنه الماذرائى : وإذا الماذرئيون يهيجون لهذا ويثيرونها فتنة على القرطى ، وإذا الخليفة المقتدر يعزل القرطى بعد أن ولاه مؤنس ، وكان ابن طغج موصول الحبل بمؤنس ، موصول الحبل بأعوان مؤنس ، طامعاً فيما عند مؤنس بعد ما كان طامعاً فيما عند تكين ، يرى ما عند تكين قد انتهى بهذا الذى نال منه ، ويرى ما عند مؤنس سوف ينتهى بولاية مصر ،

وها هو ذا قد غاضب تكين فما باله لا يُرضى مؤنسا ، من أجل ذلك أجار القرطى يخفيه عنده حتى لا يصيبه مكروه. وهو حين أجار القرطى يحميه كان يرجو أن يبلغ ذلك مؤنسا فيرضيه عنه .

وما كان مؤنس يترك نصيراً له دون أن يمد له يد العون ، وكأنى بهذا العون قد رسم بين ابن طغج والقرطى ، فلقد كان عونا محدوداً هذه المرة ، عونا يخرج به ابن طغج عن مصر آمنا من شر تكين إلى عمل آخر يليه خارج مصر ، إذ لم يكن عزل تكين عن مصر وتولية ابن طغج مكانه بالأمر اليسير .

ولقد ولّى مؤنس الرملة ابنَ طغج ، ولاه إياها بأمره أو بأمر الخليفة ، يستوى هذا وذاك ، فلقد كان الأمر لمؤنس كما كان للخليفة يقضيه مؤنس بعلم الخليفة إن صحا الخليفة ، وبغير علمه إن غفل ، ولا أدرى كيف أمضى مؤنس هذا الأمر ، أأمضاه على حين صحوة من الخليفة أو على حين غفلة ،

وأكاد أميل إلى أنه أمضاه على حين غفلة من الخليفة ، فما أكثر ما كان الخليفة يغفل

ولقد انتهى هذا التقليد إلى ابن طغج سرا ، وخرج به ابن طغج إلى الرملة سرا ، وإذا ابن طغج قد ترك ولاية الحوفين إلى الرملة وأصبح بعيداً عن تكين قريباً من مؤنس .

ويرى تكين الشر وهو الذى قد جرب أوله ، فيحاول أن يضم إليه ابن طغج فيرسل إليه : (ألم نُربِّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) ، فيرسل إليه ابن طغج : (ففررتُ منكم لما خفتكم) .

وبهذا انكشف ما بين الرجلين وغدا علنا ما كان سرا ، وبات تكين حذراً على ولايته ، وبات ابن طغج متطلعاً إلى تلك الولاية ، طامعاً فى أن تؤول إليه ، وما أظنه كان يعنيه على أية صورة يتم له ذلك ، غير أن الزمن لم يمتد بتكين طويلا ، فمات قبل أن يلقى ابن طغج يدخل عليه مصر .

وإن الذين يروون لعمرو بن العاص تلك القصة التى سبقت

دخوله إلى مصر واليا ، وأنه فى قدمة له إلى مصر تاجرا حضر حفلا لأهلها فى الإسكندرية ، وأن الكُرة التى كان يتقاذفها أبناء الأمراء ، مَن وقعت فى حجره كانت الإمارة له ، وقعت فى حجر عمرو ، فاستنكر الناس أن يكون هذا العربى أميرا عليهم .

إن هؤلاء الذين يروون هذه لعمرو يروون مثلها لابن طغج فيقولون : إن الإخشيد كان يجلس فى دمشق يوما فرأى طائرا كان الناس يقولون عنه : إنه حين يدور حول رأس إنسان مرات ثلاثا ويتمنى هذا الإنسان شيئا يجاب إليه . ولقد دار هذا الطائر حول رأس الإخشيد ، واستمع الناس إلى الإخشيد فإذا هو يتمنى مُلك مصر .

وهكذا كان الإخشيد مشغوفا بمصر ، ما نظن هذا الشغف كان جديدا عليه ، بل نظنه كان شغفا قديما صحبه حين دخلها مع أحمد بن بسطام ، وصحبه حين كان مع على بن أحمد بن بسطام ، وصحبه حين عاش فى ظل تكين ، ولكن هذا

الشغف حين زكاه ما كان لابن طغج من نصر على اللصوص الذين كانوا يقطعون الطريق على الحجاج ، وما كان لابن طغج من بأس فى طرد الفاطميين ، استحال أملا قويًّا ، فإذا هو يحركه للخروج على ولى نعمته تكين .

وما نظن الذى فعله ابن طغج حين خالف عن أمر تكين ، وحين استولى على تركة والى الإسكندرية ، وهو يعلم أن ولى نعمته يأبى ذلك ولا يرضاه ، ما نظن هذا إلا كان استملاء من هذا الأمل ، واستملاء من هذا الطمع . وما نظن ابن طغج حين وصل حبله بحبل مؤنس يجير القرطى ويحميه ، إلا كان ينفذ هذا الأمل ويحقق هذا الطمع .

وكان على محمد بن طغج قبل أن تخلص له مصر أمور ذكرت لك منها شيئاً ولم أذكر لك منها شيئاً .

فما أظنني ذكرت لك أن الإخشيد رشا كاتباً من كتاب الخليفة ليظفر بتقليد زائف يلي به مصر . يذكر ذلك بعض المؤرخين ليدلونا على مبلغ الطمع لحكم مصر في نفس الإخشيد ، وليدلونا على مبلغ الفساد في البلاط الخليفي . ويستوى أن يكون الإخشيد حاول هذه ، ويستوى ألا يكون حاولها . فهي حين تجرى بها أقلام المؤرخين تشير إلى هذين الشيئين اللذين أشرت إليهما : طمع الإخشيد طمعاً أفسد عليه نفسه ، وإسفاف البلاط الخليفي إسفافاً أفسد عليه أمره ، سواء أوقعت تلك التي أشار إليها المؤرخون فعزوها إلى الإخشيد ، أم لم تقع .

وما أظنني ذكرت لك أن الإخشيد اشترى ولاية مصر

بثمن آخر غير هذا الثمن الذى يُشك فى أنه دفعه .

ولقد ندب الخليفة الراضى رجلا من رجاله لينظر فى أحوال مصر بعد أن بلبلت عليه لبه تلك الأحوال ، وكان هذا الرجل الذى ندبه الخليفة لهذا الغرض هو الفضل بن جعفر .

ولقد أراد الفضل أن يكون جادا فيما يبدو ، فشرط على الخليفة أن تكون كلمته الفاصلة ، لا ندرى أحرصاً على الحق أم حرصاً على شىء آخر غير الحق .

ولكن الذى نعلمه أن ابن طغج زوج ابنته من ابن الفضل هو محمد ، وإذا الفضل يُعلى اسم ابن طغج على الخليفة ، عليه والياً على مصر .

سبق هذا كله أو بعضه ولاية الإخشيد على مصر ، وإذا الإخشيد بعد هذا كله أو بعضه يلى أمر مصر ليؤسس فيها دولة له ولأهله من بعده ، على نمط تلك الدولة الطولونية ، ثم ينتزع مصر من أحضان الدولة العباسية كما انتزعها ابن

طولون ، لتكون له ولأهله حقيقة ، ولتكون للخليفة العباسى اسماً .

وما انتهى سعى الفضل بن جعفر عند تلك الأولى التى مرت بك ، بل مضى يؤيد للإخشيد بعد أن ولى الإخشيد مصر ، ويثبت أقدامه فيها خوفاً من أن ينتزعه الخليفة عنها كما انتزع غيره . فما كان للولايات عرف محفوظ ، ولا كانت لها سنة متبعة ، بل كانت شيئاً يُبرمه النهار وينقضه الليل ، يجرى رضى ساعة ويجرى نقمة ساعة أخرى ، لا تعرف ساعة الرضى من ساعة النقمة ، ولا ساعة النقمة من ساعة الرضى .

من أجل ذلك كان على الوالى الحريص أن يُمهد لأمره ، وكان عليه أن يحوط هذا الأمر ، ثم كان عليه أن يحوط نفسه مع هذا الأمر .

لهذا كله عمل الإخشيد يمهد بشىء ، ويحوط هذا التمهيد بشىء ، ثم كان عليه أن يحوط نفسه فاستقدم الفضل بن

جعفر ليبّره ويكرمه برا واسعاً وإكراماً كبيراً ، أو قل بَر الفضل بن جعفر وأكرمه الإكرام كله حين قدم إلى مصر .

لقد كان الإخشيد يضمن الفضل بمصاهرته التى مرت بك ، وها هو ذا قد ضمنه أخرى بهذا الذى استقبله به فى مصر وأعده له ، يدفعه الإخشيد راضياً ويتقبله الفضل راضياً ، وينظر إليه الشعب ساكتاً ، لا ندرى أكان على الرضى أم على السخط .

ولقد حمل الفضل معه قبل أن يقدم إلى مصر هذه القدمة الثمن الذى أخذ به ما أخذ من الإخشيد ، حمله معه خلعاً من الخليفة تشير إلى رضاه عن الإخشيد .

ولقد دفع الاخشيد هـذا الثمن الذى نال به الرضى من الخليفة ، دفعه غالياً من أرزاق الشعب وقوته .

وكما دفع الشعب هذا من رزقه وقوته دفع غيره قبل ذلك

من دمه وروحه ، حين قتـــل منه الإخشيد من قتل ليدخل مصر .

وهكذا كان الشعب هو الغارم على صور مختلفة ، إلا أنه على هذا كان ينشد مثلا أعلى ، كان ينشد أن يرى أمر هذه الدولة إلى التئام ، وكان يؤثر أن يرى كلمتها إلى إجماع ، فهان عليه ما بذل ، وأقبل على الإخشيد يمد يده إلى يده ، ليستقبل عهداً جديداً يلقى فى ظله كسباً جديداً .

لقـــــد ولي الإخشيد محمد بن طغج مصر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائه ،ولاه إياها الخليفة الراضى كما مر بك . وفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة مات الراضى وخلفه أخوه المتقى ، فأقر الإخشيد على مصر . وكما اشـــترى الإخشيد الراضى أو كاد اشتري المتقى وأفلح .

فلقد استقبل الخليفة المتقى حياة مضطربة ، طمع فيـه القواد ، وطمع هو فى القواد ، فإذا هم فى حرب بينهم ، وإذا هو فى حرب معهم ، وإذا هو فى هذه الحرب لا ينجو منها .

وفى غمرة هذه الفتن القائمة استنجد المتقى بالإخشيد ، والتقى المتقى بالإخشيد ، فرأى المتقى من الإخشيد شيئاً يعطفه عليه ويؤنسه به .

رآه يجله إجلالا كبيراً ، ورآه يخضع له الخضوع كله ، ورآه يهدى إليه النفيس والغالى ، ورآه يحمل إليه الأموال

حملا ، ويكدس له الطيب تكديساً ، ويحزم إليه المنسوجات حزماً ، ويسوق إليه الدواب سوقاً .

فعل هذا كله الإخشيد حين لقى المتقى ، فعله لا ليجله أو يكبره ، ولكن ليخدعه عن نفسه كما خدع غيره من قبل ، فعله ليشتريه كما اشترى غيره وما بال الإخشيد لا يفعل ما ينتهى به إلى غرضه ، ثم ما باله لا يفعل ما جرّبه ولم تخطئه التجربة فيه .

ولقد رشا الإخشيد الراضى فنال مصر ، ثم رشا الفضل فثبتت قدمه فى مصر ، وها هو ذا يرشو المتقى ليكتب له المتقى ولاية مصر ثلاثين عاماً .

وهكذا أصبحت مصر تباع وتشترى ، يدفع عنها الولاة الثمن ، ويساوم الخلفاء فى هذا الثمن ، إن رضوا باعوا وإن لم يرضوا قبضوا أيديهم .

وهكذا ضمن الإخشيد ولاية مصر بهذا الثمن الذى دفعه للمتقى ، ضمنها له ولأبنائه من بعده ثلاثين عاماً .

ولقد كان الإخشيد فى غنى عن أن يدفع هذا الثمن الغالى ويوفره على نفسه ، ولا أقول على أصحاب هذا الثمن ، وأعنى بهم الشعب ، فلقد سلب هذا الثمن من هذا الشعب ، وكان هذا الشعب أولى به من الخليفة . كان الإخشيد فى غنى عن هذا الثمن الذى دفعه إلى الخليفة وإلى من حول الخليفة ، لو أن الشعب عدل عن نظرته إلى الخلافة ، وعدل عن نظرته إلى مثله الأعلى ، وعدل عن تقديسه لهذا الحق العام . ولكن الشعب كان لا يزال طامعاً فى أن يستقيم للخلافة أمرها ، فحرص على أن تحفظ لها هيبتها لا تفريط فيها .

وهكذا كان الشعب ممعناً فى التضحية ، يدفع عن هذا كله دون ضجر ولا ملل .

* * *

وحين عاد الإخشيد بهذه — أى بولاية ثلاثين عاماً — أحب أن يعود بالخليفة نفسه إلى مصر ، يجعله إلى جانبه وفى ظله ، فيضمن مصر ويضمن غير مصر ، إذ بقاء الخليفة بعيداً

عنه فى بغداد ، وبقاؤه هو بعيداً عن الخليفة فى مصر ، يتيح للحاقدين أن يغيِّروا الخليفة عليه . وما نظن الإخشيد كان كبير الثقة بهذا العهد الذى ناله — أعنى ثلاثين عاماً فى ولاية مصر — فهو كان يعرف أن الخليفة الذى أعطاه هذا هو الخليفة الذى قد يمنعه هذا ، لا عبرة بوعد ، ولا عبرة بكلمة ، ولا عبرة بعهد ، ولا عبرة بمكتوب .

وانتهز الإخشيد ما بين الخليفة المتقى وما بين قائدله يدعى توزون من نُفرة ليجعل الإخشيد من ذلك وسيلة لإقناع الخليفة بالعودة معه إلى مصر ، إلا أن الخليفة أبى على الإخشيد هذه الدعوة ولم يرحل معه إلى مصر .

وما كان الإخشيد أول من فكر فى هذه ، فقد سبقه إليها ابن طولون ، وما كان غرض الإخشيد ببعيد عن غرض ابن طولون ، وكما أراد ابن طولون أن يؤيد ملكه بوجود الخليفة فى ظله يضمن به لأمره الثبات ، ويضمن به لأمره القوة ، أراد الإخشيد أن يؤيد ملكه بوجود الخليفة

إلى جانبه ، يضمن به لأمره الثبات ، ويضمن به لأمره القوة .

وكما انتهز ابن طولون خوف المعتمد من أخيه الموفق ، الذى كان له الأمر فى الجيش ، انتهز ابن طولون حذر المتقى من قائده توزون ، وكما أخفق ابن طولون أخفق الإخشيد ، وكما رفض المعتمد رفض المتقى ، ولقد مات المعتمد قهراً من أخيه الموفق ، وحين عاد المتقى إلى بغداد أكحله توزون فأذهب عينيه ، ونادى بالمستكفى خليفة .

وكما أقر المتقى الإخشيد أقر المستكفى الإخشيد سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة . ولا ندرى بما اشترى الإخشيد الخليفة الجديد ، فلقد رأينا الخليفة الجديد يعرض عليه إمارة بغداد بعد أن مات توزون . ولكن الإخشيد أبى هذه الإمارة يؤثر عليها ولاية مصر .

ويعزل المستكفى ، وما مضى على خلافته غير عام ، ويخلفه

المطيع لله ، فإذا هو يسرع بإقرار الإخشيـــــد على مصر ، ولا ندرى كم دفع الإخشيد لهذه أيضاً ، ولـكن الإخشيد كما دعا للمستكفى على منابر مصر ، دعا للمطيع على منابر مصر ، بجعل هذه الطاعة الظاهرة ثمناً ثانياً لبقائه على عرش مصر . لا يعنيه أن يلقى كل يوم على كرسى الخلافة خليفة جديداً ، ما دام يملك أن يدفع ، وما دام يملك هذه الطاعة الظاهرة التى لا تدل على شىء فى القلب .

غير أن الإخشيد لم يترك ما كان يدفع عمر سدى ، ولم يترك ضعف الخلفاء يمر سدى ، وحين أغرى المتقى بهدايا ، وحين استنفذ من المتقى هـذا الحق فى الحكم ثلاثين عاماً ، حين ملك الإخشيد هـذا كله أخذ ينقش اسمه إلى جانب اسم الخليفة على الدنانير منـذ سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، يرى مصر له وللخليفة ، لم يرض أن يشاركه الخليفة فى هذا المظهر الاسمى ، بعد أن غلبه على المظهر الفعلى ، والناس حين لا يملـكون يقنعون بأن يكون لهم شىء قليل ، فإذا وقع فى أيديهم هذا الشىء القليل طمعوا فيما فوقه . وهكذا إلى أن

يخلص لهم الأمر كله . وما نظن الإخشيد كان سيقف عند هذه التى انتهى إليها حين شارك الخليفة فى كتابة اسمه معه على الدنانير ، لو أن الزمن امتد به ، وما نظنه إلا كان يطمع فى أن يستأثر بذلك كله دون الخليفة ، وينال ملك مصر حقيقة واسماً ، خالصاً له كله من دون الخليفة .

(١١)

وفى ذى الحجة من سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ودع الإخشيد الحياة ، بعد أن امتد به العمر إلى أن بلغ الثامنة والستين ، فلقد كان مولده فى رجب من سنة ثمانية وستين ومائتين ، قطع من ذلك العمر نحوا من اثنى عشر عاماً على مصر ، استقبل تلك الأعوام الاثنى عشر والياً من الولاة يعطى الخليفة أكثر مما يأخذ ، ثم توسطها يأخذ من الخليفة أكثر مما يعطى ، ثم استدبرها يزحم الخليفة عليها ، فإذا هو صاحب الحظ الأوفر ، ثم ضمنها له ولولده من بعده عن رضى من الخليفة لا قهراً عنه ، فإذا مصر له باسم الخليفة ، وإذا هو رب أسرة عرف التاريخ مصر بها ، وما ندرى هل كان يطمع فى غيرها فيقطع هذا الخيط الواهى الذى كان يربطه بالخلافة أم أنه قنع بما انتهى إليه . ويكاد يكون ضعف الخلافة عن أن تنازعه فى قليل أو كثير ، قد أرضاه بالأولى فلم يفكر فى الثانية .

ولكنا على هذا لا نعفيه من أنه كان سيقدم على الثانية لو امتد به الزمن ، فلقد بدأ طامعاً ، والطمع يهوّن على صاحبه العقبات ، ويغريه بمزيد إن جرّب تخطى العقبات ، ولقد خطا الإخشيد من عقبة إلى عقبة لم يلق كيداً ، من أجل ذلك لا نظنه مات راضياً بما نال ، بل نظنه مات وفى نفسه طمع إلى ما لم ينل ، وما نظنه كان بينه وبين أن يخطو إلى هـذا الذى لم ينله إلا تقدير وتمهيد ، عجل الزمن به دون أن يتهيأ له ما قدر ، ودون أن يتم له ما أراد أن يمهد به .

ولكنه على هـذا لم يترك الحياة إلا بعد أن ترك ابنه «أونوجور» والياً على مصر من بعده ، وإلا بعد أن عهد إليه بها.

ولقد مات الإخشيد فى دمشق ، وكان ابنه أونوجور عندها خلفاً له على مصر ، أقامه الإخشيد فى مقامه هـذا قبل أن يترك مصر إلى الشام .

وكان أنوجور عندها فتى فى الخامسة عشرة من عمره ، ولقد كاد الأمر يضطرب عليه أول الأمر ، كادت أن تخرج

ولاية مصر من يديه لسببين ، أولهما سن هذا الفتى الذى لا يهيئه للحكم ، وثانى السببين سعى عمه الحسن بن طغج لينال الأمر دون ابن أخيه .

ولكن هذا الفتى الصغير على هذا أدخل الحكم لسببين ، أولهما هذا العهد الذى أعطاه الخليفة المتقى للإخشيد : قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور ، وثانى السببين أن الفتى الصغير كان إلى جانبه فى هذه المحنة رجال يساندونه ، لهم حجتهم فى أن صغر السن لا يحول بين الصغير وبين أن يلى ، فمن قبله ولى أمر مصر هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكان أصغر منه سنا .

ولقد كان الخليفة المعز فى شغل يضعفه عن أن يعيد النظر فيما أعطى سلفة المتقى فيغير ويبدل ، فأقر أونوجور على ولاية مصر والشام ، لم يأخذ منه شيئا مما كان لأبيه الإخشيد .

وحين غلبت كلمة المساندين لأونوجور كلمة المخالفين عليه ،

وحين جاءت كلمة الخليفة تعطى أنوجور وتحرم عمه ، سكن المصريون لا يقولون شيئاً ، لأنهم كانوا يحبون أن تمضى أمورهم بعيدة عن فتنة ، سوف لا ينالهم منها إلا الضر الشديد ، ولأنهم كانوا أحرص ما يكونون على أن تستقيم الأمور العامة للخليفة فتستقيم أمورهم الخاصة فى ظل استقامة الأمور العامة . وما عليهم فى أن ينزلوا عن شىء خاص ليحموا شيئاً عاما .

وما نظن أن المصريين كانوا يجهلون الأحداث المحيطة ، وما نظنهم كانوا يجهلون الفتنة التى أوشكت أن تُطل عليهم برأسها ، وما نظنهم كانوا لا يقدّرون ما سيجره عليهم هذا الخلاف حول هذا العرش ، يصور لك هذا قول شاعرهم ابن طباطبا :

مات إخشيدنا فها نحن فى　　أمر مريج وكل كف تُمد

كلكم طالب بجد وحرص　　إنما الشأن أن يوافق جد

يا ولاة الأمور إن لم تنيبوا　　لانتظام فقد تناثر عقد

فها أنت ترى أن الأمر كان على أن يثير محنة من المحن

الكثيرة التى شقى بها المصريون حول هذه الولاية ، وذاقوا من ويلاتها الموت والجوع ، من أجل ذلك سكتوا أولا على هؤلاء المختلفين الطامعين حتى يفرغوا من خلافهم ، ثم سكتوا ثانياً حين رأوا كلمة الخليفة المعز تقضى فى هذا الخلاف ، واستقبلوا الأمر يعطون ولا يأخذون ، ليعينوا هذه الخلافة على أن تمضى ، وليعينوها على أن تحمل عبئها الكبير ، وليعينوها على أن تشق طريقها وسط هذه المصاعب المحيطة التى كادت تعصف بالدولة العربية العظيمة ، لا يعنيهم أنهم باذلون ولكن يعنيهم أن تستقيم الأمور .

وما ساند الساندون أونوجور إلا وهم طامعون فى صغر سنه لينالوا هم من ورائه كسباً ، لا يقوى هذا الصغير على منعهم منه ، ولقد رأوا إن هم ساندوا الكبير — أعنى العم — لن يستطيعوا أن ينالوا شيئاً .

ولقد ارتضت أم الصغير عمل المساندين فنزلت عن الكثير لتجزيهم أجر ما فعلوا .

وأحب قبل أن أمضى معك فى الحديث عن أونوجور أن أصلك بحديث رجلين كان لهما الفضل فى التمكين لهذا الفتى الصغير ، هذان الرجلان اللذان أحب أن أحدثك عنهما هما الماذرائى أبو بكر محمد بن على ، وكافور الاخشيدى ، وسأحدثك عن أولهما أولا لأفرغ من شىء سبق كان له أثر فيما لحق .

ولكنى قبل أن أدخل فى هذا الحديث أحب أن أختم صفحة الاخشيد ، وأحب أن أسوق لك ما انتهى إلى المؤرخين عنه مما يتصل به رجلا من الرجال فيه ما فيهم من إقدام وإحجام ، وجرأة وخوف ، وشجاعة وجبن ، وحرص واستهتار ، وبخل وجود .

لقد كان هذا الرجل القوى — أعنى الإخشيد — الذى عرفت شيئاً عن قوته ، تلك القوة التى لم يلحقه فيها معاصر ، كان هذا الرجل القوى جسما عليل النفس . سوداى الطبع ، يعاوده فى الحين بعد الحين صرع ، يهيج به فيعدو طوره ، ويخرج به عن سكونه ، وإذا هو عنيف بمن معه بعد رفق ، غليظ بعد حلم ، هائج مائج بعد وقار واتزان .

والويل للناس إن ألموا به حين تثور مرته ، عندها يستقبلون النكر ممن لا يليق أن يصدر منه النكر ، أعنى والياً ترده الولاية إلى وقار واتزان .

فإنهم يحكون أن مجلسه ضم يوماً قاضيين من القضاة ، قاضياً للشافعية هو أبو بكر بن الحداد ، وقاضياً للمالكية هو أبو الذكر محمد ، ويثور بين القاضيين نقاش يرتفع معه صوتاهما شيئاً . وكان مثل هذا اللغط يهيج الإخشيد ويخرجه

من دعة إلى ثورة ، ولقد هاج الإخشيد وثار لا لأن شيئاً مما وقع كان يمسه فيغضب ، ولكن ما وقع كان فيه ما يحرك نفسه المُعتمة ، فإذا هو هائج ، وإذا هو قد أنسى أن بين يديه قاضيين من جلة القضاة ، وأنهما لم يفعلا غير هذا الذى بدا على لسانيهما عالياً شيئاً ، فإذا هو يكاد يأمر بأخذ عمامتيهما ونزعهما عن رأسيهما ، امتهاناً لهما وتشهيراً بهما .

من أجل ذلك كان الإخشيد يركن إلى الأماكن البعيدة عن الجلبة حيث السكون والدعة ، يفعل ذلك أو يُفعل به ذلك ، حين يحس أو يحس من معه أن به مساً من صرع .

ويختلف المؤرخون بعد ذلك فى الإخشيد ، يصفه بالشجاعة قوم ويصفه بالجبن قوم آخرون . ولقد صدق هؤلاء كما صدق أولئك ، غير أنهم أنسوا أن الرجل كان مريضاً يصدر عن طبيعتين : طبيعته الصحيحة وطبيعته المريضة ، وكان مع طبيعته الصحيحة يصدر عن حزم ويقظة وحسن تدبير وشجاعة ، وتلك هى الطبيعة التى بلغ بها مآربه . وكان مع

طبيعته المريضة يصدر عن قلق وغفلة وبلبلة وجبن ، وتلك هى الطبيعة التى أفسدت رأى الناس فيه .

وكما قالوا إنه شجاع قالوا إنه جبان . وكما قالوا إنه حازم قالوا إنه أخرق ، وكما قالوا إنه مدبر قالوا إنه مخلط . عرفوه فى صحته فوصفوا الجانب الحق منه ، وعرفوه فى مرضه فوصفوا الجانب غير الحق منه . ولكن الرجل كان حقه معزوا إليه وكان غير حقه معزواً إليه أيضا، ولهذا وذاك أثره فى الحياة وأثره فيه ، فلقد كان والياً يحسب ما له وما عليه ، ولم يكن فرداً من عامة الناس لا يحسب ما له وما عليه .

يروون أن هذا الرجل الذى عُرف شجاعاً فى الحرب حين كان يصح عرفوه جبانا فى غير الحرب حين كان يمرض ، فكان له ثمانية آلاف مملوك ، يحرسه فى كل ليلة منهم ألفان ، وكان إذا سافر جعل خيام الخدم إلى جانب خيمته ، وكان على الرغم من تلك الحيطة البالغة لا يهجع فى خيمته ولا يبيت فيها ، بل كان يمضى سرا فينام فى خيمة من خيام الخدم ،

لا يستقر فى خيمة ليلة كاملة ، بل كان يفزع فيترك خيمة إلى خيمة ، وهو قلق هلع .

بهذه عرفه الناس وما استطاعوا أن يحكموا عليه حكماً واحداً ، بل اختلف حكمهم ، ومن أجل ذلك رأينا محمد بن عبد الرحمن الروذ بارى نائب الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات فى مصر يقول للإخشيد ، حين شاوره فى أمر من أموره : فيك أيها الاخشيد خلتان مذمومتان البخل والجبن .

وما نظن الروذبارى حكم على الاخشيد إلا وهو ينظر إلى طبيعة من طبيعتين ، أعنى تلك الطبيعة المريضة ، التى خلقت من الاخشيد رجلا جبانا ثم رجلا بخيلا .

وكما كان يرد هذا المرض الاخشيد إلى جبن كان يرده إلى بخل . ولقد رووا له في ذلك مُلحاً كثيرة . عاش الناس يتندرون بها أيامه وما بعد أيامه .

يروون أن مزاحم بن محمد بن رائق زوج ابنته دخل عليه لابساً فرواً ثميناً ، فأعجب الاخشيد بالفرو ، وما كان يعز

عليه وهو ملك وفى يده السلطان والمـال أن يحصل على مثل هذا الفرو ، أو ما هو أغلى منه وأثمن . ولـكن بخل الاخشيد كان فوق ملـكه وفوق سلطانه وفوق ماله . يذعن لهذا البخل على عليه ولا يذعن لما يمكنه منه ملـكه بسلطانه وماله . يصرفه هذا البخل عما لا يليق فيوعز إلى رجل من رجاله بأن يحتال على مزاحم يوهمه أن الاخشيد يريد أن يخلع عليه . ويوهمه أن تلك الخلعة التى يريد أن يخلعها عليه الاخشيد تقتضى مزاحماً بأن يخلع فروه .

وما ظن مزاحم أن الاخشيد يريد غير ما أنهاه إليه هذا الرجل من رجاله . وما ظن مزاحم أن الاخشيد يريد أن يمكر به مكراً دنيئاً لا يليق بملك ، إذ المُلك يقتضيه أن يترفع عما يقع فيه السوقة المعوزون . ولا يليق برجل موسر بله ملك يمكنه يساره الواسع من أن ينال ما يحب . من أجل ذلك خلع مزاحم فروه . ومن أجل ذلك لبث مزاحم ينتظر الخلعة التى وُعد بها والتى خَلع من أجـلها فروه . ويطول الوقت

بمزاحم دون أن يُخلع عليه ودون أن يُرد إليه فروه ، وحين يقلق مزاحم يساوره الشك ، وحين يساوره الشك يبحث عن ذلك الرسول الذى أخذ فروه يستنجزه ما وعد ، وإذا هذا الرسول يذهب ويعود دون أن يقول شيئاً أو يأتى بشىء ، فيشتد الشك فى نفس مزاحم ، وحين يشتد الشك فى نفسه يشتد على الرسول ، فلا يجد الرسول مناصاً من أن يقول شيئاً ، فيقول لمزاحم : إن الإخشيد قد غلبه النوم فنام .

ويمضى مزاحم حزيناً ليعود من الغد إلى الاخشيد حزيناً ، وحين يدخل مزاحم على الاخشيد يجد الفرو عليه ، فيستخزى مزاحم وما استخزى الاخشيد ، استخزى مزاحم فلم يقل شيئاً ، وما استخزى الاخشيد فقال : ما أصفق وجهك ، لقد أبديت لك إعجابى بالفرو فلم تنزل عنه لى ، ولو قد فعلت لشكرتك . وها أنت ترى أنى أخذته منك دون أن يكلفنى هذا الأخذ شكرك .

أرأيت إلى هذا الذى رووه عنه ، فهو إن صح دلك على

أن الاخشيد كان بخيلا ، وأن هذا البخل أفسد عليه نفسه ، وأفسد عليه أمانته ، وأفسد عليه خلقه . ولقد كدنا نكذب هذا الذى رووه عنه لولا شيء آخر يكاد المؤرخون يجمعون عليه، ويكاد هذا الشيء الذى يجمعون عليه يؤيد ما لم يجمعوا عليه ، فإن المؤرخين يروون أن الاخشيد كان كأبيه يحب الطيب ، ويحب من هذا الطيب العنبر ، وكان يُلزم الناس أن يُهدوا هذا إليه حين يحبون ، أو حين يُحملون على أن يهدوا إليه .

ولو أن أمر هذه انتهى إلى هذا لانتهت بسلام أو شبه سلام، ولم تؤكد عليه الأولى، ولكن المؤرخين يزيدون أن الاخشيد كان إذا جاء موسم الإهداء — أعنى موسم إهداء الطيب أو العنبر الذى كان يؤثره على غيره — كان يُخرج ما فى خزائنه من هذا العنبر فيبيعه إلى التجار بثمن غال ، ثم يتلقاه هو منهم هدية ، يفعل هذا حُبا منه فى المال ، واحتيالا منه لجمع هذا المال ، الذى تتوق إلى جمعه وكنزه نفوس البخلاء أمثال الإخشيد .

وقد يختلف هؤلاء البخلاء شيئاً عن الاخشيد ، وقد يتفقون شيئاً مع الاخشيد ، ولكن الاخشيد كان ملكا ، وكان ذا جاه ، وذا سلطان وذا مال ، وكان أحرى به أن يخالف البخلاء شيئاً فلا ينحدر إلى ما ينحدر إليه طغامهم ، ومن لم يرزقوا أسباباً مثل أسبابه توفر عليهم هذا الانحدار .

أرأيت إلى أن الأولى التي فعلها الاخشيد مع مزاحم ، بعد هذه التي أجمع عليه المؤرخون ، لم تكن غلوا من الغلو ، وإنما كانت حقا من الحق .

ولكنى على هذا أقول : إن الاخشيد كان فى مثل هذا يُملى عن نفسه السقيمة التى تجعله يرى الأشياء بعينه السقيمة التى تصور له الأشياء مخوفة مفزعة فيخاف ويفزع ، ويملى عليه هذا الخوف وذاك الفزع أن يحتاط ، ثم تملى عليه الحيطة أن يشتط ويغلو فى الشطط .

ويؤيد رأينا هذا فى الاخشيد ، وأنه كان ذا نفسين : نفس مريضة وأخرى سليمة ، أنه كان إذا سلمت نفسه

استقامت أحواله الاستقامة كلها ، فإذا هو ورع ، وإذا هو يخشى ربه ، ويخشى أن يفعل ما يفسد عليه تلك الصلة التى تربطه بربه .

يقولون : إنه فى عام من الأعوام ، وفى رمضان من ذلك العام ، وفى اليوم التاسع والعشرين من رمضان ذاك ، أحس بشىء من الفتور بعد أن أفطر ، فاسترخى للراحة ولم يخف لحضور الختم فى المسجد . ودخلت عليه جاريته تستنهضه للذهاب ، وحين وجدته مثقلا قالت : سوف أعتق عنك غداً عشر رقاب .

وهنا يحس الاخشيد شيئاً يغلب ثقله فينبسط للنهوض ، وإذا هو يقول للجارية : ويحك ، أترين عشر رقاب تغنى عن حضورى الختم ؟ لعل رجلا صالحاً مستجاب الدعوة يكون حاضر تلك الجماعة يدعو فيقول: اللهم اغفر لجماعتنا . ويستجيب الله إليه ، فما بالى لا أكون بين هذه الجماعة فيغفر الله لى معهم . ثم مضى إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم .

وهكذا أملت عليه نفسه السليمة أن يستجيب لغير ما تمليه عليه نفسه المريضة ، فآثر أن يخالف هواه الذى يحقق له تلك الراحة الذاتية التى يحسها حين يجرى وراء مطامعه ووراء رغباته ، واطرح تلك المطامع والرغبات الحسية التى إذا دخلت على النفوس ملأتها مرضاً مثل ذلك المرض الذى عانى منه الاخشيد كثيراً مما هو شائن ، وحركه لكثير مما هو شائن .

ومثل هذه التى رووها له عن استقامة نفسه أخرى جرت له مع امرأة من النساء أخذوا منها ابنها ، فاعترضت طريقه وهو يسير فى شارع من الشوارع تقول له فى جرأة ،وإذا قدر لامرأة من الشعب أن تعترض السلطان وتحدثه جريئة غير هيابة ، دلك ذلك على عظم ما نالها فاندفعت لا تبالى موتاً أو حياة ، وإذا هـذه المرأة التى عظم خطبها فلم تبال العرش أو الجاه تقول للإخشيد : أذكرك بموقفك هذا منى موقفك بين يدى الله . وحين ذكرت هذه المرأة الاخشيد بالله اختفت

فيه نفسه المريضة واستقبل المرأة بنفسه السليمة ، فإذا هو ينزل عن دابته ، وإذا هو يرفع إليها وجهه ، وكأنها هى السلطان وهو هذه المرأة بين يدى السلطان ، وإذا هو يستمع لشكواها ، وإذا هو بعد أن يستمع إلى شكواها يعطيها صرة فيها مائة دينار ، ويأمر بإخلاء سبيل ابنها .

وما مائة دينار بهينة على الاخشيد حين تمرض نفسه ، ولمثل هذه المائة حين تمرض نفس الاخشيد يحتال ويسعى فى الاحتيال ، ولكنه كان كما حدثتك حين تسلم نفسه ينسى طغيانه الذى يغريه بألا يعبأ لمظلوم وألا يعبأ لمكدود . وألا يعبأ إلا بما يشبع أطماعه ويحقق رغباته ، وإذا هو بعد هذا مع هذه النفس السليمة يقول للمرأة غير ما قال لمزاحم فى ذلك الحديث الذى مر بك عن مزاحم ، لم يقل لها قول المتشفى حين ينال ما يطمع فيه ، بل قال لها قول الذليل للحق المذعن لهذا الحق : خذى هذه الصرة فعسى الله أن يرحم ذل موقفى بين يديه .

قد تقول: إن الاخشيد كان ديّناً يحرص على معالم الدين ، من أجل هذا فعل هذه وتلك ، ولكنا نقول : إن الاخشيد حين غلب مزاحماً على فروه ، وحين كان ينال ما ينال من تجار العنبر كان يفعل شيئاً يحرمه عليه الدين ، ويحرمه عليه هذا التدين .

إذن فالاخشيد ، كان يدين حين تسلم له نفسه ، وكان لا يدين حين لا تسلم نفسه ، وكان الاخشيد — كما قلت لك — هذا الرجل الذى يعيش بنفسين نفس مريضة و نفس سليمة ، وكان إذا خشى الله ، أو ذُكر به ، تعود إليه نفسه السليمة فيملى إملاء سليما ، ولو أن مزاحماً ذكره الله حين أخذ منه الاخشيد فروه ، لذكره وخشى وارتدت إليه نفسه السليمة ، ولو أن التجار ذكروه الله لخشى وارتدت إليه نفسه السليمة ، ولكنه كان حين يفقد من يذكره الله لا يخشى فلا ترتد إليه نفسه السليمة .

وما يدرينا لعل حوادث أخرى مرت بالاخشيد ومر بها الاخشيد ، لم يذكرها لنا المؤرخون ، ولعل تلك الحوادث

الأخرى التى مرت بالإخشيد ومر بها الاخشيد مما عابه المؤرخون على الاخشيد لم يجد معها الاخشيد من يذكره الله ، وكانت نفسه المريضة غالبة ، وكانت مستعصية ، فمضى الاخشيد يستملى عن تلك النفس المريضة وما ثاب إلى نفسه السليمة .

على هذا التناقض ، وفى ظل ذلك التردد بين نفسيه عاش الاخشيد ، لا تكاد تعرفه طيباً ولا تكاد تعرفه غير طيب .

فلقد ساقوا إليه يوماً شيخاً مقامراً كان يغرى اللاعبين معه ويطمعهم إلى أن يجردهم من كل ما يملكون ، فإذا حاز ما يملكون أغراهم وأطمعهم فى أن يقامروا بما يلبسون ، ولا يزال بهم حتى يجردهم من كل ما يلبسون ، فإذا هم قد خرجوا خالية جيوبهم عارية أجسامهم . وحين يمثل هذا الرجل بين يدى الاخشيد يغريه بالتوبة إلى الله ، فيتوب الشيخ إلى الله ، ويرضى الاخشيد ما كان من الرجل إليه ، ويرضى الرجل ما كان من الاخشيد إليه ، ويخرج الرجل عن الاخشيد بعد أن يأمر له الاخشيد بثوب ورداء وألف درهم

إلى السلطان كما أمر السلطان ، وإذا الإخشيد يقول لجنده : خذوا ما أعطيناه واطرحوه أرضاً واضربوه مائة عصا .

وكأنى بالإخشيد حين قبل توبة الرجل وحين أعطى الرجل ما أعطى كان يستملى عن نفسه السليمة . ولكن الرجل ما كاد ينصرف عنه حتى عز عليه ما بذل من مال ومن كسوة ، وإذا هو يرتد إلى نفسه المريضة فيأمر بما أمر . لا يعفى الإخشيد من هذا الحكم ما رووه له تتمة لهذه القصة ، فإنهم يروون أنه قال للرجل بعد ما أخذ منه ما أعطاه ، وبعد ما طرحه أرضاً ، وبعد أن ضربه مائة عصا : أين هـذا من إغرائك وأطماعك ؟ .

لو كان الإخشيد أراد درساً ليقيم الشيخ على الطريق السوى ، فلقد كان حسبه ما فعل أولا ، فهو إن كان طامعاً حقا فى صلاح الشيخ فلقد وعده الشيخ بأنه سيصلح ، وما كان على الإخشيد إلا أن يتربص بالشيخ ليعرف صدقه من كذبه . ولكن الإخشيد بدأ جادا حين استملى عن نفسه

السليمة ، ثم ثنّى هازلا حين استملى عن نفسه المريضة ، فذكر ماله الذى نزل عنه وعاد بخيلا شحيحاً بتلك الدراهم والدنانير المعدودة .

وما أكثر ما كان الإخشيد مريض النفس ، تملكه مآربه الدنيوية فتهون فى نفسه تلك المريضة كل الضوابط وتخرج نفسه تلك المريضة عن كل الضوابط ، يرى ما له على الناس ولا يرى ما للناس عليه ، وهو سلطان ماعلا هذا الكرسى إلا ليرعى ما للناس أولا ، وهو حين يرعى ما للناس أولا ويرعى ماله ثانياً ، قد ثبت بتثبيت ما للناس عليه ، فيثبت ماله على الناس ويقيم الناس على محبته ولا يقيم محبته على الناس والمحبة فى النفوس نائمة يوقظها عدل الوالى ورفقه ، وتوقظها رعاية الوالى لحقوق النـاس ، ويوقظها نسيان الوالى لنفسه وذكره الناس . وإذا سلك الوالى غير هذا دفن هـذه المحبة النائمة وأيقظ فى النفوس الكراهية النائمة ، فإذا هو قد خسر

الناس وخسر نفسه من حيث أراد أن يكسب الناس ويكسب نفسه .

وما طمع الإخشيد فى مال الناس يجمعه له دونهم إلا وهو طامع فى أن يجرد الناس من كل مالهم ، ينفس على الناس أن يشاركوه رغد الحياة وجاه الدنيا يريد هذا وذاك له وحده دون رعيته ، شأنه شأن المستبدين الذين لا يريدون أن تشيع الاشتراكية بين الناس ، يشاركون جميعاً فى عز الحياة وفى جاه الحياة ، بل لقد كان الإخشيد ملكى النفس حين تمرض نفسه ، يطمع فى أن تكون الدنيا كلها بين يديه ، ويحب أن يتخلف الناس عنه ، فمن كان ذا مال سلبه ماله ، ومن كان ذا جاه سلبه جاهه ، حتى لا ينغص عليه غنى الناس غناه ، وحتى لا ينغص عليه جاه الناس جاهه ، وإن وجد أن حياة الناس تنغص عليه حياته عدا على تلك الحياة فأخمدها .

عرفنا ذلك للإخشيد حين كان نائباً عن أبيه طغج فى حكم طبرية ، فلقد كان إلى جانبه فى طبرية أبو الطيب العلوى ،

وكان أبو طيب العلوى رجلا ذا جاه بين الناس يحبه الناس ويبجلونه، يكاد الناس يعرفونه ولا يكادون يعرفون الإخشيد . ولكن أبا الطيب على هذا الذى يعطيه إياه الناس لم يكن يعطى الإخشيد غير ما يعطيه إياه الناس ، فكان هو الآخر يكرم الإخشيد ويبجله . ولكن نفس الإخشيد المريضة ما كانت لترضى هذا الذى يحظى به أبو الطيب العلوى دونه . وكان الإخشيد عندها لا يملك أن يقضى فى أمر دون أن يرجع إلى أبيه ، فكتب إليه يذكر له شأن أبى الطيب فى عزه بين الناس وشأنه هو فى هوانه بين الناس ، فإذا أبوه يكتب إليه : أعز نفسك . .

ما ندرى ما أراد طغج بكلمته إلى ابنه . ولكن الإخشيد فهمها بما تحب له نفسه المريضة أن يفهمها . ولعل الأب كان يريد هذا الذى فهمه الابن ، ولعل الأب كان هو الآخر يعرف طريقه فى الحياة، يريد أن يمهد هذا الطريق له ولابنه ، ولا يريد أن يمهد للناس معه ومع ابنه . من أجل ذلك أمره

بأن يعمل لإعزاز نفسه ولم يأمره بأن يعمل ما يعز به نفسه والناس . فإذا الإخشيد ينقضّ على أبى الطيب ليلة وهو فى شأن له فيقتله .

وما أمر الدين بهذا القتل الغادر ، وما هكذا يدخل الولاة إلى الحكم ، وهم إذا دخلوا إليه من هذا الطريق الظالم أرضوا أنفسهم ولم يرضوا الناس . وما أظن الولاة إن عقلوا فى غنى عن أن يرضى بهم الناس . والولاية للتاريخ قبل أن تكون للوالى ، يمضى الوالى بما نال ويبقى التاريخ بصفحاته حياة ثانية ممتدة ، فتلك الحياة القصيرة التى عاشها الوالى ، إن طابت تلك الصفحات طابت له حياته القصيرة على الألسنة ، وطابت فى الأسماع وطابت فى الأنفس ، وإن ساءت حياته تلك القصيرة ساءت على الألسنة وساءت فى الأسماع وساءت فى الأنفس ، وما أظن الإنسان خلق إلا ليكون صفحة من صفحات التاريخ الطيبة ، فإن هو سجل غيرها ناسياً الخلود يحب العاجلة

فقد خسر نفسه . وما وُجد التاريخ إلا ليعظ هؤلاء الذين ينزلقون مزالق الخسران .

وعلى هـذا فقد مضى الإخشيد يحب نفسه ولا يحب الناس ، فمات لم ينتفع بحبه لنفسه ولا بحب الناس له . وعاش المصريون فى ظله صابرون على ما أصابهم من رهق ، صابرون على ما أصابهم من ضيق ، لأنهم كانوا — كما قلت لك — لم ينظروا إلى الإخشيد ، وإنما كانوا ينظرون إلى تلك القضية العامة ، ورأوا إن هم ضاقوا بالإخشيد ضاقوا بتلك القضية العامة . ولـكنهم على هذا كانوا يتنفسون ، وكان يعنيهم أن يحس الإخشيد تنفسهم ، فلقد استطاع كاتب من كتابهم أن يسطر رقعة بما يحس ويحس إخوانه من حوله ، وأن يترك هذه الرقعة فى دار الإخشيد ليقع عليها ، وإذا فى هذه الرقعة :

« قدرتم فأسأتم ، وملـكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيّقتم ، وأُدرّت لـكم الأرزاق فضيقتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفـكروا فى عواقبكم . واشتغلتم بالشهوات

واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار ، وهى صائبات
— يقصد دعاء الداعين بالسحر — ولا سيما إن خرجت من
قلوب قرحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها .
ولو تأملتم هذا حق التأمل لانتبهتم ، أو ما علمتم أن الدنيا
لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى
ما نالها من بقى ، فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه
فرح للعالم . ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى
منهم أحد ويبقى المنتظر به . افعلوا ماشئتم فإنا صابرون ،
وجوروا فإنا بالله مستجيرون . وثقوا بقدرتكم وسلطانكم
فإنا بالله واثقون . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ويعنينى من تلك الرقعة ختامها ، فهذا الختام يدلك على
ما تذرع به المصريون من صبر ، وما تحلوا به من استمساك
بحقهم العام ، وما اتصفوا به من نسيان لحقهم الخاص ، يرون
القضية العامة أجل من الإخشيد ، وأجل من ذلك الحق الخاص ،
الذى ظلمهم عليه الإخشيد .

والرقعة قبل هـذا الختام تعطيك صورة واضحة لحكم الإخشيد ، وتعطيك صورة واضحة عما كانت تحمل نفوس المصريين للإخشيد وهذا الشعور الذى أملى على هذا الكاتب المصرى هذه الرقعة كان يغلى على عامة المصريين أكثر مما فى هذه الرقعة . كتب هـذا الشعور هذا الكاتب فأبرزه فى رقعة ، وكتبه المصريون فى صفحات صدورهم فوعوه وعبروا عنه ، فكانوا لا يصطفون لموكبه الكبير حين كان يخترق هذا الموكب الكبير الشوارع .

ولقد مضى الإخشيد بعد أن حقق لنفسه ما شاء من متاع ولهو وأبهة ، ولكنه مضى ولم يحقق شيئاً فى قلوب رعاياه ، فمضى رجلا عاش لنفسه ولم يعش لأمته . وفى هذه المنزلة التى وضع نفسه فيها مات ، لم تذكره أمته وتركت التاريخ يذكره .

وأحب بعد هذا أن أعود بك إلى الحـديث عن هذين الرجلين اللذين وعدتك بالحديث عنهما ، وهما أبو بـكر محمد ابن على الماذرائى ، ثم أبو المسك كافور ، فلقد كان لـكليهما شأن فى تولية أونوجور وتثبيت ملـكه ، وأولهما مضى محسوباً على هذه الدولة ، وثانيهما مضى معدوداً فى هذه الدولة . من أجل ذلك سوف أبدأ بهذا المحسوب وأثنى بهذا المعدود ، أذكر من أخبار الثانى هذا القليل الذى شارك به فى هـذا التمهيـد لأونوجور ، وأترك الـكثير من أخباره لمـكانه المخصص له من هذا الـكتاب ، لتستقبل معى حياة كافور كاملة ، وتعرف كيف استأثر هذا الخصى بالملك ، وجمع تاريخ هذه الدولة الإخشيدية كله حوله .

وأبو بـكر الماذرائى هذا الذى نحب أن نبدأ الحديث به هو فرد من أفراد تلك الأسرة التى عرفت باسم الماذرائيين

— نسبة إلى قرية من قرى البصرة اسمها ماذرايا — تلك الأسرة التى ظلت فى مصر فترة طـــويلة تقيم وتعزل وتنهى وتأمر .

ولسنا ندرى على التحديد متى كان رحيل جد هذه الأسرة إلى مصر ، كما لا ندرى من كان أولهم قدوماً إلى مصر ، غير أننا نكاد ندرى أن جدًّا لهذه الأسرة لا نعرف اسمه قدم إلى مصر حين قدم إليها أحمد بن طولون ، وحين أصاب هذا الجد فى مصر حظا من الثراء، وحظا من الجاه ، أرسل يستقدم أهله ، فإذا هو بهم أسرة ، وإذا هذه الأسرة يكتب لها تاريخ طويل ممدود ، تشارك به فى كل دولة ، وتشارك به مع كل والٍ من ولاتها .

وكان هذا الجد الذى أسس لهذه الأسرة فى مصر هو أحمد بن إبراهيم — وقيل ابنه محمد — فلقد ولى هذا الجد خراج مصر سنة ست وستين ومائتين أيام أحمد بن طولون .

وحين كتب لهذا الجد أحمد الماذرائى هذا لف حوله

أهله ، فكان فترة ينيب عنه أخاه ، وأخرى ينيب عنه ابنه عليا . وتشيع الشائعات أن أحمد الماذرائى قد مد يده إلى أموال الدولة فاختلس منها شيئاً كثيراً ، وينبرى علىّ للدفاع عن والده دفاعاً دل على سعة حيلة ، وتوقد ذهنه ، وحضور بديهته ، وإذا هو بهذا الدفاع يبرىء أباه ويبعد عنه ما لصق به ، لا ندرى أكانت تلك التبرئة لأن الأب لم يختلس حقا أم كانت تلك التبرئة لأن الابن كان يعرف مداخل تلك الأمور المالية التى كانت تدق على عقول الكثيرين . وسواء أكانت هذه أم تلك فلقد برىء الوالد مما نسب إليه ، وبدأ نجم الابن يتألق ، فإذا هو مقرّب من السلطان وإذا أحمد بن طولون يعطيه فوق ما كان فى يديه وإذا هو مطلق اليد فى إدارة مصر .

وما أنسى علىّ آله كما لم ينس أبوه آله ، فإذا علىّ يفرض على ابن طولون ما ذرائيّاً آخر هو أخوه الحسين بن أحمد ،

وإذا ابن طولون يجعل للحسين بن أحمد تدبير الأمور في الشام .

وتمضي الأيام وإذا علي هذا وزير لخمارويه ، وإذا هذا الوزير يستأثر بخمارويه يصرفه كيف شاء ، وإذا هو يغريه بالحسين بن مهاجر ، وكان أقرب الناس إلى أحمد بن طولون إذ كان ابن مهاجر يحتفظ بأموال كثيرة لأحمد بن طولون . ولقد استولى خمارويه على هذه الأموال ، استولى عليها ليجعلها في يد علي الماذرائي . وهل أغرى الماذرائي خمارويه إلا ليضمن هذه التي كان يطمع فيها .

وكما مهد أحمد لابنه علي ومهد علي لأخيه الحسين ، عند أحمد بن طولون أخذ علي يمهد ثانية لولديه . أبي بكر محمد بن علي . وأبي الطيب أحمد بن علي ، فاستقدمهما إلى مصر وأفلح في أن يولي ابنه أبا بكر محمدا على الخراج ، ثم على ديوان الرسائل .

وتمضي الأيام فيموت خمارويه ، ويؤول الأمر إلى أبي

العساكر جيش بن خمارويه . وحين آل الأمر إلى أبي العساكر آل إلى علي ، فأصبح صاحب الأمر دون أبي العساكر . وكما لم يرض الجند أبا العساكر لم يرضوا علياً ، وكما ثاروا بأبي العساكر فقتلوه ثاروا بعلي فقتلوه .

ولكن هذه الثورة التي قضت على أبي العساكر لم تقض على الأسرة الطولونية ، كما أن هذه الثورة التي قضت على عليّ لم تقض على الأسرة الماذرائية ، فإذا هارون بن خمارويه يخلف أباه ، وإذا أبو بكر الماذرائي يخلف أباه ، يخلفه وبين يديه ثروة كبيرة تركها له أبوه ولم يستطع الثوار أن يقعوا عليها .

وحين خرج الطولونيون من مصر خرج معهم أبو بكر فيمن خرج من عمال الطولونيين ، تاركا أخاه أبا الطيب على خراجها ، ثم عاد أبو بكر ليخلف أخاه عليا على خراج مصر بعد وفاته ، وظل بها يجمع الأموال إلى أن ضاقت بها خزائنه ، ويجمع في يده السلطان حتى لم يبق لغيره سلطان ؛ وإذا الخلافة

الناعة تستيقظ قليلا فتستدعيه لتطالبه بأداء أموال كثيرة كانت عليه ، وتصادر جزءاً كبيراً من أملاكه ، وتصادر جزءاً كبيراً من أملاك أسرته .

وكما خرج أبو بكر من مصر عاد إلى مصر بعد أن ظل أربعة عشرة عاماً بعيداً عنها ، عاد إليها ليلى خراجها مرة أخرى . وكأن الخلافة لم تكن معه جادة . وتحس الخلافة مرة ثانية أن أبا بكر الماذرائى يختان أموال الدولة ، وتحب أن تستبدل به فتكتب إلى تكين والى مصر أن يضع يده على أبى بكر إلى أن يحضر عامل الخراج الجديد . ويرى أبو بكر أنه على أن يُحاسب ، وأنه على أن يؤخذ ما فى يده مما جمع ، فيسعى سعيه للخروج عن مصر بما يملك من مال ، ويسعى سعيه إلى أن يدخل إلى ضمير تكين يغريه بالرشوة ، فيهدى إليه وإلى زوجته هدايا يقدرها المؤرخون بنحو من عشرين ألف دينار ، أى ما يعدل عشرة آلاف من الجنيهات .

ويخدم الجَد أبا بكر فيموت عامل الخراج الذى أرسلته

الخلافة ليحل محل أبى بكر فى الطريق ، فإذا أبو بكر على عمله لم يُخلع عنه ولم يغادره .

ويموت تكين وتضطرب الأمور على محمد بن تكين — كما مر بك — ويثور الجند على أبى بكر مطالبين بعطائهم ، ويحرقون داره ودور كثير من أتباعه ، ويخرج محمد بن تكين إلى الشام ، ويختفى أبو بكر فى دار من دور أصدقائه .

ويكتب محمد بن تكين من الشام إلى الخلافة فى بغداد ليلى مصر ، كما يكتب أبو بكر الماذرائى من مخبئه فى مصر إلى الخلافة ببغداد لتقره على عمله بمصر . وتستجيب الخلافة فى بغداد لمحمد بن تكين كما تستجيب للماذرائى ، ولا ندرى كم دفع ابن تكين ثمناً لهذا ، كما لا ندرى كم دفع الماذرائى ثمناً لهذا ، ولكننا نخال أنفسنا ندرى بأن الماذرائى أغلى فيما دفع وغالى ، فلقد كتبت إليه الخلافة فى بغداد تفوض إليه أمر مصر وتكل إليه من يختار لولايتها ، كتبت بهذا الخلافة فى

بغداد إلى الماذرائى وهى التى كتبت مع هذا الذى كتبته إلى الماذرائى عهداً إلى ابن تكين توليه مصر .

ونكاد نظن أن الخلافة فى بغداد كان لها حينذاك بابان ، باب دخل منه ابن تكين فنال ولاية مصر ، وباب دخل منه الماذرائى فنال الحق فى أن يولى مصر من يختار ، ونسىء الظن بالخلافة فنقول : لعل الباب الذى دخل منه ابن تكين كان هو الباب الذى دخل منه الماذرائى ، فدفع ابن تكين شيئاً فنال على قدر ما دفع ، ودفع الماذرائى شيئاً أكثر فنال على قدر ما دفع . وما على من هم حول الخلافة من البائعين إلا أن يقبضوا ، وما عليهم بعد أن يقبضوا على أية صورة يقع الأمر ولعلهم أرادوا بذلك مكراً وأرادوا حيلة ليعود إليهم المختلفون فتكون لهم معهم مساومة ثانية ، ويظل هذا الباب — باب الأخذ والعطاء — مفتوحاً لا ينغلق .

ونحسن الظن بالخلافة شيئاً فنقول : لعل الخلافة أرادت هذا لتفيد من خلاف الناس بعضهم على بعض ، فتضمن فى

آلا يخرج أحد عليها ويستقل بالأمر كما حدث مع الطولونيين.

ولقد وصل إلى ابن تكين جواب ما أراد ، كما وصل إلى الماذرائى جواب ما أراد ، فخرج الماذرائى من مخبئه يصرف أمور مصر بهذا الجواب الذى وصل إليه ، وقصد ابن تكين مصر بهذا الجواب الذى وصل إليه ليلى أمره فيها ، ولكن الماذرائى كان لا يحب أن يلى ابن تكين مصر فيطمع فى شىء فوق ما نال يكون من ورائه إقصاؤه هو ، لم يذكر ما كان لأبيه تكين معه من سابقة ، أعنى تلك التى مرت بك حين هيأ له أن يخرج بماله لما غضبت عليه الخلافة . ولكن الماذرائى كان لا يراها سابقة تُرعى وتذكر لتحمد ، وإنما كان يراها سابقة من تلك السابقات التى يبدو صاحبها متفضِّلا وهو مُشترًى ، فلقد اشترى الماذرائى تكين بثمن غال ، وأعطى تكين ما أعطى بهذا الثمن الغالى ، من أجل هذا لم يذكر الماذرائى ما كان من تكين إليه على أنه فضل يحمد ويرعى ، ولكنه نظر إليه على أنه بيع وشراء . ولعله حين نظر إليه تلك النظرة ، وجد نفسه قد غُبن حين دفع

هذا القدر الكبير فى هذا البيع والشراء، فلم يؤيد ابنه محمداً .

وحين لم يحب الماذرائى أن يدخل ابن تكين مصر خرج إليه فى جيش من المغاربة وصده عن دخول مصر ، وبقيت مصر فارغة من وال ، أو قُل بقيت مصر وعلى ولايتها الماذرائى نحواً من اثنين وثلاثين يوماً ، إلى أن وليها الاخشيد ولايته الأولى .

ويثور الجند ثانية على أبى بكر يطلبون أرزاقهم ،ويمضون فى ثورتهم فيحرقون دوره ودور أهله ، وتحمَى الفتنة بين المغاربة جند الماذرائى وبين المصريين جند الدولة ، وما ندرى كم ذهب ضحيتها من هؤلاء ومن هؤلاء ، ولكنها على كل حال كانت فتنة قوامها السلاح لا الأيدى ، وما ضحايا السلاح كضحايا الأيدى .

وفى ظل هذه الفتنة القائمة سعى ابن تكين لدخول مصر ، فدخلها مستنصرا بجماعة من المصريين ، وتثور الحرب بين ابن تكين وجنده المؤيدين له ، وبين ابن كيغلغ وجنده

المناصرين له ، وكانت الخلافة أعطته مصر بعد أن أعطتها الاخشيد للمرة الأولى ، كما مر بك . وما خمدت الحرب بين الجيشين إلا بعد أن فر ابن تكين عن مصر .

وما إن خُلع الخليفة القاهر وولى الخليفة الراضى حتى عاد ابن تكين إلى مصر يدّعى أن الخليفة الجديد جعل مصر إليه ، وتقوم الحرب ثانية بين ابن كيغلغ وبين ابن تكين ، يصلَى المصريون شرها مرة ثانية ، إلى أن ينهزم ابن تكين ويعود من حيث أتى .

وأبو بكر الماذرائى من وراء هذا كله يثبت لنفسه ، ويثبت لأهله ، يخسر الناس ويكسب هو ، ويفقد الناس ويجمع هو ، وإذا ابن كيغلغ الوالى الاسمى والماذرائى الوالى الفعـــــلى .

وما فعلته الخلافة مع ابن تكين ومع الماذرائى هناك فعلت مثله مع ابن كيغلغ والماذرائى هنا ، فلقد كتبت إلى ابن

كيغلغ تُقره على مصر ، وكتبت إلى الماذرائى تجعل إليه أمر مصر يولى عليها من يشاء ويختاره ، فأعطت بذلك الماذرائى فوق ما أعطت لابن كيغلغ ، وأرخت الحبل للماذرائى يُمضى الأمور كما أحب ، وأصبح ابن كيغلغ لا أمر له ولا نهى ، وأصبح الماذرائى له الأمر والنهى ، ومضت الأسرة الماذرائية تجمع الدنيا فى يديها ، تلتوى الأمور فى طريقها شيئاً وتستقيم شيئاً ، تعصف بهم الحياة فيتوارون ، وتصفو لهم الحياة فيظهرون . ولعل تلك الثروات الضخمة التى كانت فى أيديهم هى التى مكنتهم من أن يصبروا للبلاء ، ومكنتهم من أن يدفعوا عن أنفسهم هذا البلاء . فلقد قيل إن صدقات أبى بكر الماذرائى بلغت فى سنة واحدة نيفاً وستين ألف دينار . وأن إيراد ضياعه فى مصر بلغ أربعمائة ألف دينار فى السنة سوى الخراج .

كان هذا مال أبى بكر وحده فما بالك بمال أسرته -

وهكذا حازت هذه الأسرة ما لمصر من غلات دون المصريين أعطوا منها المتنفعين حول الخليفة . وما أظنهم أعطوا منها المصريين شيئاً ولا عادوا عليهم بشيء .

ويحدثنا المؤرخون أن الإخشيد حين ولى مصر للمرة الثانية وأراد أن يدخلها لم يَعنه أمر الخليفة الذى فى يده . ولكن عناه أمر أبى بكر الماذرائى فى مصر . فكتب يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر على أن يظل ما لأبى بكر له كما هو .

غير أن أبا بكر كان يخاف الإخشيد على ما بين يديه ، فجمع له جموعه ، وكلفه شيئاً كثيراً ، وحمله على محمل صعب لم يقو عليه الإخشيد إلا بعد جهد جهيد . فلقد أراد ابن كيغلغ أن يخلى الطريق أمام الاخشيد ، وأراد الماذرائى أن يسد الطريق على الإخشيد ، فغلبت إرادة الماذرائى إرادة ابن كيغلغ ، وكان ما كان من حرب بين الجيشين دفع المصريون ثمنها من دماء ومال .

وحين دخل الاخشيد مصر لم يعدم من الماذرائيين من يمد يده إليه مظهراً الخلاف على أبى بكر ، وإذا الإخشيد يُسلم أمره إلى ماذرائى آخر ، هو الحسين ، ابن أبى بكر هذا ، ويختفى أبو بكر فيظهر ابنه ، وهكذا عرفت هذه الأسرة كيف تداور الأيام ، وكيف تمضى مع الأيام ، وكيف تساير جميع الحكام .

وعاش أبو بكر فى مخبئه يطل برأسه ، يرهبه الإخشيد لأنه كان يؤمن أن الحياة لأسرته ، كلما وقعت بهم نكبة احتالوا فى دفع تلك النكبة فخرجوا منها ظافرين ، ويرغب إليه لأن أسرته كانت خزان المال فى الأرض على الرغم مما نالها من مصادرة .

وسرعان ما يُهدى أبو بكر للاخشيد هدية تبلغ خمسين ألف دينار ، وسرعان ما تذهب هذه الهدية بغضب الإخشيد ، فلقد كان بخيلا وكان مُحباً للمال ، وما خمسون ألف دينار

بالشيء القليل . وسرعان ما طلب الإخشيد من ابن الفرات أن يعامل الماذرائى معاملة رقيقة ، وكان ابن الفرات قد جاء مصر ليحاسب الماذرائى على ما جمعت يداه ، وعلى الرغم مما نال أبا بكر فقد بقى له شأنه وبقى له أمره ، وحين يموت الإخشيد وتضطرب الأمور على أونوجور يظهر أبو بكر ليقول كلمته التى رجحت كفة أونوجور وهبطت بكفة عمه الحسن بن طغج ، وما أراد أبو بكر أونوجور ، ولكنه أراد نفسه يريد أن يعود صاحب الأمر كله ، ولكن كافور كان أقوى من أبى بكر ، وكان أبو بكر قد علت به السن وضعضعته الأحداث ، فاختفى الماذرائى ليظهر كافور .

———

وكان الماذرائى يحس ما لكافور من شأن فأراد أن يشتريه بهذا الذى صنع فى تولية أونوجور ، يروون أنه كتب إلى كافور — وكان كافور عندها بالشام — ينهى إليه ما كان له من جهد، ويروون أن كافور كتب إلى الماذرائى يحمد له ما فعل، لا نعلم تفصيلا عن هذا الكتاب الذى أرسله الماذرائى ، ولا نعلم تفصيلا عن هذا الكتاب الذى أرسله كافور لنعرف كيف صانع الماذرائى كافور، ولنعرف كيف صانع كافور الماذرائى. ولكنا نعرف أن وصول كافور إلى مصر كان مع وصول كتاب الخليفة المطيع بتولية أونوجور ولاية مصر والشام، ونعرف أن أبا المسك كان له الأمر دون أونوجور ، وأن أونوجور حين مات سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، بعد أن ولى مصر خمسة عشر عاماً أقام أبو المسك مقامه أخاه عليا، وكان عندها ابن ثلاثة وعشرين عاماً ، وأقر الخليفة المطيع ما أمضاه كافور . وظل كافور صاحب الأمر أيام على كما كان

صاحب الأمر أيام أونوجور . ونعرف أن أبا المسك حين مات على بن الإخشيد سنة خمس وخمسين وثلثمائة أعلن نفسه حاكما على مصر ، وأن الخليفة المطيع ولاه إياها ، بعد أن أقصى عن الحكم ابناً كان لعلى صغيراً ، هو أحمد ابن على .

وهكذا ترى معى أن الإخشيديين لم يحكموا مصر إلا الفترة التى حكمها الإخشيد ، ثم كان الأمر إلى كافور أعوام أونوجور ، ثم أعوام أخيه على ، إلى أن كان الأمر إلى أبى المسك كافور دون الصغير أحمد بن على ، وحين مات كافور سنة سبع وخمسين وثلثمائة ظهر أحمد وكان عندها صبيا فى الحادية عشرة ، فولى مصر عاماً وأشهراً ثلاثة .

ولكننا نحب قبل أن ندخل بك إلى حياة كافور أن نوجز لك الحديث شيئا عن حياة أونوجور وأخيه على من بعده ، وهو إن بدا عن غير كافور فإن فيه نصيباً كبيراً لكافور .

يروون أن أبا المسك لم يتح لأنوجور فرصة ليمرن

على الحكم فيفيد من هذا المران ويظهر للناس يعرفونه على حقيقته ، ويترك للتاريخ صفحة يسجلها له التاريخ حاكما عليه حكماً صحيحاً . بل لقد اختفى أونوجور ، ليظهر كافور ، وكان الخطباء يدعون على المنابر لكافور ولا يدعون لأنوجور ، وكان حسب أونوجور أن يدير يده فيما خصصه له كافور من مال يبلغ أربعمائة ألف دينار فى العام .

وحين شب أونوجور عن الطوق وبلغ رشده بلغ أن يحس استبداد كافور بالأمر دونه ، وزين له المتصلون به أن يناوىء أبا المسك ليأخذ منه ما سلبه إياه .

ولقد كانت كبيرة على نفس الملك الصبى أن يرى أبا المسك فى يده المال كله وليس هو فى يده غير تلك الدراهم التى فرضها له أبو المسك ، وأن يرى أبا المسك الآمر الناهى وهو ليس له أمر ولا نهى ، وأن يرى كل ما كان لأبيه فى حوزة أبى المسك وهو ليس له من ذلك قليل ولا كثير ، وأن يرى أبا المسك السلطان غير المتوج وهو السلطان المتوج . وماذا

يغنى التاج إن لم يُعط صاحبه الحق فى أن يقول وأن يفعل ، وإلا كان تاجاً من تلك التيجان التى توضع على رؤوس الدُّمى .

من أجل ذلك لم يكن الملك الصبي متأبياً على من كشفوا له عن ذلك كُله ، ولقد بلّغته السن أن ينطق ، وما أذلّه إن أمسك لسانه مع هذه السن عن أن ينطق ، ثم ما أضيعه إلى أن يموت إن سكت عن أن يطلب ما له حين بلغ أن يطلبه .

وهكذا بدأ أونوجور يضيق بكافور ويتعقب أعماله ، وهو الذى كان من قبل أن يبلغ السن لا يملك أن يضيق ، ولا يملك أن يتعقب عملا لأبى المسك .

وشاء أونوجور أن يَشيع عنه أنه ساخط على أبى المسك ، وأنه ناقم عليه فعلته به ، ليحرك بذلك المشفقين عليه فيملكوا أن ينطقوا كما ملك هو أن ينطق ، ويضمن بهم تأييداً له على حقه ، ويضمن بهم شيعة وأنصارا . فإذا هو يترك الحاضرة — مقر سلطانه — إلى مكان آخر ،

لتغدو تلك الجفوة بينه وبين كافور سافرة بعد أن كانت شيئاً تنطوى عليه جدران القصر، ولتصبح حديث الناس عامة بعد أن كانت حديث فئة خاصة .

ولقد ضمن أونوجور بهذا شيئا، ضمن أن يقَسم الجند كما قسم الرعية، فإذا الجند قسمان : قسم له وقسم لكافور .

وكان أنوجور حين ترك العاصمة، وهو يدعى أنه خرج للهو والصيد، ينوى أن يخرج إلى الرملة ليمكن لنفسه، وليجمع حوله من هم على رأيه، ومن هم يَرمون بأبى المسك معه، وينوى أن يعود بهؤلاء جميعاً ليلقى أبا المسك قوياً على انتزاع الأمر من يديه .

ولكن أمّا لأونوجور كانت أبصر بالأمور من ابنها أنوجور، وكانت ترى الضجر بأبى المسك لم ينته إلى قلوب كثرة من ذوى النفوذ، ولم ينته إلى قلوب كثرة من الجند، وكانت تعلم أن ذوى النفوذ هم بين طامع فى جاه أو طامع فى مال، وكلاهما إرضاؤه عسير، فالطامعون فى الجاه

لا شك مقاسمون الجاه ابنها إن هم أفلحوا . وقد يكونون شرا من أبى المسك . والطامعون فى المال مطالبون ابنها بالكثير قبل أن يقدموا ، وما فى يد ابنها قليل أو كثير مماهم فيه طامعون .

والجند قلوبهم رهن بأرزاقهم ، يعطون قلوبهم حيث يضمنون أرزاقهم ، وما فى خزائن ابنها شىء قليل أو كثير من هذه الأرزاق ، وقد يغريهم أونوجور بما سيكون له فيعطون قلوبهم نسيئة . ولكن الويل لابنها إن طال أمد الفتنة ، عندها سوف ينهزم صبر النفوس بين يدى شَره البطون ، وسوف يستحيل تأييد المؤيدين له من الجند عُدوانا عليه .

هكذا رأت الأم بعينى بصيرتها ، وهكذا قدرت الأمور بحكمتها . فإذا هى تحذر ابنها ألا يفعل . وإذا هى تخوفه الفتنة ، وإذا هي لتكسب أبا المسك صديقا لتلك الأسرة تقفه إلى جانبه وتقفه على ما انتوى ابنها أن يفعله .

وإذا كافور علك في تلك المحنة رأياً يُغبط عليه: فلقد كان في وسعه أن يعصف بالملك الصبي . ويكلف نفسه خوض محنة من المحن الهينة . ولكن أبا المسك كان في هذه لبقاً . ورأى الشر الصغير قد يجر إلى شر كبير ، وذكر أن معظم النار من مستصغر الشرر ، ونظر فرأى الملك الصغير أهون من أن يركب له متن الخطر ، وأحس أن الملك الصغير مكسوب بمزيد من التدليل لا بقليل من العنف ، وهو بهذا المزيد من التدليل ضامٌ ما بينه وبينه . قاطع ما بينه وبين مناصريه ، وأنه بالقليل من العنف قاطع ما بينه وبينه : واصل ما بينه وبين مناصريه .

من أجل ذلك آثر أبو المسك أن ينزل عن شيء من كبريائه ليرضي كبرياء الصبي ، فكتب إلى الصبي يسترضيه ، وكتب إلى الصبي يُعنيه . فإذا الصبي قد أُنسي ملكه وأنسي رسالته ، وإذا هو قانع بكلمات ، وقانع بدريهمات ، وإذا الأمور تعود ثانية إلى أبي المسك ، أو تبقى كما هي في يدي أبي المسك ،

يجريها خالصة له من دون أونوجور كما كانت من قبل .

وأمسك أبو المسك هذه المرة بزمامها إمساكا شديداً ، يرقب الصبي ويرقب المتصلين بالصبي ، إلى أن مات هذا الصبي سنة تسع وأربعين ومائتين . وما نظن أبا المسك إلا استعجل الموت لهذا الصبي فدس إليه السم ليستريح منه ومن مناوءته . وليقطع السبيل على هؤلاء الذين حدثتهم أنفسهم بأن يجعلوا من هذا الصبي وسيلتهم لمناوءة أبي المسك وإبعاده عن هذا العرش الذي أخذ يوطئه له .

ولقد مات أونوجور عن ثلاثين عاماً . عاش منها سلطاناً أربعة عشر عاماً . أو قل : عاش منها أبو المسك سلطاناً في ظل أونوجور أربعة عشر عاماً .

ومات أونوجور ليلي الأمر من بعده أخوه علي بن الإخشيد . وكان عندها فتى في الثالثة والعشرين من عمره .

وما أغنت علياً سنه . فما كان صغيراً حين ولي صِغَرَ أخيه . ولكنه كان حين ولي قد ملئت نفسه رهبة من أبي المسك .

وأكسبته ذلة أخيه ذله ، وأكسبه هوان أخيه هوانا . وما نظن أبا المسك ترك هذا الوارث الثانى بعيدا عن رعايته ، وما نظنه إلا أخذه بما يحب ونشأه كما يهوى ، وأعدّه كما أراد .

وهكذا دخل علىّ إلى الحكم كبيرا صغيرا ، كبيراً بسنه صغيرا بعقله ، فلم يُغن شيئا ، واستلم لأبى المسك يمضى الأمور دونه ، وكما كان أبو المسك يعطى أونوجور أعطى عليا ، لم يزد فى عطائه شيئاً ، بل لقد زاد أبو المسك فسلبه شيئا كان لأخيه ، فما ترك أبو المسك عليا يظهر لشعبه ، ولا تركه يجلس إلى ندواته إلا إذا كان أبو المسك معه .

ولقد ضاق الفتى بأمره فانحدر إلى اللهو يلهو ، ثم ضاق باللهو لم يجد فيه سلوته فارتفع إلى العبادة يتعبد ، ثم أرهقته العبادة فشمر لحقه يطلبه ، فإذا هو قد أفسد ما بينه وبين كافور افسادا جديدا ، وإذا كافور يستعجل به الموت كما

استعجله بأخيه من قبل ، وإذا هو يدس له السم كما دسه لأخيه من قبل ، على أن يخرج من الحياة والسلطان معاً سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، بعد أن ولى مصر نحواً من ست سنين ، قضاها يمهد لكافور التمهيد الأخير بضعفه .

ونعود بك إلى الوراء قليلا لنبدأ معك حديثاً يقطع عليك هذا الحديث الذى نحن به موصولون ، ولنصلك بحديث كافور منذ وطئت قدماه مصر ، فلقد آن لك أن تعرف سيرة هذا الرجل كيف بدأت .

ما قدم كافور مصر قدوم غيره سيداً أو شبه سيد ، بل قدمها مجلوباً مع عبيد من هنا ومن هناك ليباع فى أسواقها ، وكان عندها فتى ما بين العاشرة والرابعة عشرة .

وما نظن نشأة أبى المسك تختلف كثيراً عن نشأة جُف ، جد هذه الأسرة الإخشيدية ، فقد جلب جُف إلى المعتصم إلى أسواق بغداد من فرغانة كما جلب أبو المسك إلى أسواق القاهرة من النوبة أو السودان ، وانتهى أمر جف إلى المعتصم الخليفة ، كما انتهى أمر أبى المسك إلى محمد بن طغج ابن جف السلطان .

وتختفى سيرة جف فلا تبين إلا حين اتصل جف بالمعتصم جندياً فى حرسه الخاص ، وتبين مسيرة أبى المسك فلا تختفى منذ جاء مصر إلى أن اتصل بالسلطان .

وحين اختفى ما اختفى من سيرة جف أضفى أبناؤه على أنفسهم أنهم من نسل ملوك فرغانة ، وحمل كل منهم لقب الإخشيد ، وما منع هذا الذى ظهر من سيرة أبى المسك من أن يحمل لقب الأستاذ .

وما حرك هذا الذى اختفى من سيرة جف الإعجاب ، على حين حرك هذا الذى ظهر من سيرة أبى المسك الإعجاب ، فإذا جف يمر على صفحات التاريخ بأعماله التى عملها وإذا هو رجل من الرجال ، وإذا أبو المسك يمر على صفحات التاريخ بأعمال لم يعملها وإذا هو أعجوبة من الأعاجيب ، وإذا سيرته من أغرب السير ، وإذا حوله قصص وحوله أحاديث ، وإذا هو بطل الأبطال .

لقد جاء الفتى كافور إلى مصر مسوقاً سوق العبيد ، وعرض

للبيع فى أسواقها عرض العبيد ، وما كان من البيض ولكن كان من السود ، وما كان على سواده وسيما ، بل كان دميما قبيح الشكل مثقوب الشفة السفلى ، مشوه القدمين ، بطيئاً ، ثقيل البدن .

من أجل ذلك لم يُدخل به إلى القصور وإنما سيق إلى ما يوائم مَن فى مثل خَلقه ، فإذا هو ملك لتاجر من تجار الزيت يُسخره فى شئون شتى .

وأكبر الظن أن أبا المسك حمل نير المعصرة على كاهله ، وداس الكسب برجليه ، وحمل الأوانى على عاتقيه ، وجر العجلات بيديه ، وافترش الأرض ، وتمرغ فى الزيت ، ولقى الكثير من العنت الذى يصحب حرفة كهذه ، وتعرض لويل كثير من ذلك الويل الذى يتعرض له صبى فى مثل رقه وفى مثل خَلقه .

وقد عرفنا أبا المسك قوياً جلداً حين كبر ، وأكبر الظن أنه كان قويا جلداً حين كان صغيراً ، فحمل عبئه فى صبر

وأدّاه فى رضى ، وما نشك فى أن هذا كله كسبه عطفاً وكسبه تقديراً ، لا ندرى أمن أجل هذا طمع فيه غير صاحبه الزيات ، أم أن صاحبه الزيات استثقل منه خلته ، وضاق بقبحه ففرط فيه .

وسواء أكانت هذه أم تلك فلقد خرج أبو المسك من ملك تاجر الزيت إلى ملك رجل آخر . وإذا هو فى يد محمود بن وهب بن عباس الكاتب .

ولقد أسعفت هذه النقلة أبا المسك ووضعت رجله على أول الطريق المفضى إلى الخير . فما من شك فى أن أبا المسك بدأ هنا حياة جديدة غير تلك الحياة الأولى . وما من شك فى أن أبا المسك بدأ يتصل شيئاً بالقراءة والكتابة بعد أن نفض يديه من أدران الزيت .

وكان ابن عباس الكاتب موصولا بابن طغج ، يعرفه قبل أن يلى مصر . ويعرفه حين كان قائداً من قواد تكين أمير مصر .

ويشاء القـدر أن يحمل أبو المسك يوماً إلى ابن طغج هدية ، يُرسله بها مولاه ابن عباس الكاتب إلى ابن طغج . ويشاء القدر إلا أن يفتح قلب ابن طغج لهذا الصبى الأسود بعد أن أغلق قلب ذاك الزيات دونه .

وما نظن ابن طغج أعجب بشىء فى كافور غير قوته ، فلقد كان ابن طغج — كما مر بك — يتمتع بحظ منها كبير ، وكان يعنى الإخشيد أن يضم إليه من هم على شاكلته فى هذا ، أو من سيشبون على هذا ، كان ذلك سلاح القصر وكانت تلك عُدته . من أجل ذلك سعى ابن طغج سعيه ليشترى أبا المسك ، ومن أجل ذلك دفع ابن طغج ثمانية عشر ديناراً ثمناً لأبى المسك .

وما نظن ثمانية عشر ديناراً كانت كثيرة لشراء عبد ، وما نظن أنها كانت ثليلة أيضاً فى شراء عبد مثل كافور .

وهكذا بدأت الحياة تستقر تحت قدمى أبى المسك ، وبدأ جده ينير السبيل أمامه ، وأطلت عليه الفرص تواتيه . غير

أن الجد وحده ليس عُدة المَجد يبلغون به ما كُتب لهم ، وليست الفرص وحدها زاد المحظوظين تبلغ بهم ما قُدر لهم . ولا بد إلى جانب هذا الجد وتلك الفرص من صفة أو صفات يتميز بها هذا المجدود وذاك المحظوظ ، تعين تلك الصفة وهذه الصفات الجَدَّ على ألا يتعثر ، وتُمسك هـذه الصفة وتلك الصفات الفُرص فلا تفلت .

وكم من جـد يواتى غير مُتهيء له فيمر مرًّا وما أَعطى شيئًا ، وكم من فرص تسنح لغير مُبالٍ فتمضى لغواً دون أن تُعطى شيئًا .

والذى نعرفه عن كافور أنه كان متهيئا لذلك الجد مُلاقيًا بالا لتلك الفرص ، فلقد حل بمصر يحمل نفساً كبيرة ، ويحمل قلباً كبيرا ، ويحمل أملا واسعاً ، ويحمل طمعاً عريضاً ، حمل هذا كله وما كان عندها غير فتى صغير ، وما كان عندها غير عَبد يباع ، وما كان عندها غير ذلك الدميم القبيح الممجوج الذى لا يطمع إلا فى أن يجد سيداً يؤويه ، ولقمة يسد بها جوعته ، وشربة

يروى بها ظمأه ، ورحمة قليلة يودعها الله قلب من يشتريه ، وعملا هيناً لا يؤذيه .

فلقد رووا عنه أنه بعد أن جلبه النخاسون إلى مصر مرّ بسوق من الأسواق ومعه عبد مثله جلبه النخاسون هو الآخر إلى مصر فباعوه . مشى هـــذان العبدان فى تلك السوق يتطاولان ، يرى هذا فيحرّك ما يرى أمله ، ويرى ذاك فيحرك ما يرى أمله ، وإذا هذا ينطق يحدث بما يأمل ، وإذا ذاك ينطق يحدث بمـا يأمل . ولو استوت النفسان لاستوى الأملان ، ولـكن النفسين كانتا مختلفتين فاختلف الأملان .

يقول صاحب كافور : أتمنىّ لو اشترانى طباخ فأعيش عمرى شبعان بما أصيب من مطبخه .

ويقول كافور : أتمنى أن أملك هذه المدينة .

كان هذا أمل الصديق وكان ذاك أمل كافور . ولو أن أبا المسك لم يكن يحمل نفساً ، ولم يكن يحمل قلباً لصغر صغر صاحبه ، ولجرى لسانه بمـا جرى به لسان صاحبه ،

أو بشىء آخر لا يبعد عنه .

وهل كان أبو المسك إلا عبداً يحكى هـذا العبد فى مظهره ، ولـكنه كان غير ذلك العبد فى مخبره . ومن أجل ذلك جل فى أمله ، وجل فى طموحه ، وجل فى طمعه ، لم يثنه عن أن يكون صاحب ذلك الأمل وصاحب ذلك الطموح وصاحب ذلك الطمع أنه عبد وأنه قبيح دميم .

ولقد زاد الرواة فقالوا : إن أبا المسك بعـد أن أصبح ملـكا مر بتلك السوق فرأى صاحبه بالأمس يحتويه دكان طباخ ، فضحك وقال : لقد أدرك كل منا ما تمنى .

بهذه النفس وذاك القلب عاش كافور فى مصر ، وما نقول إن أبا المسك بلغ ما بلغ بهـذه النفس وذاك القلب ، ولـكنا نقول : إن هذه النفس ساندت جَدّه ، وإن ذاك القلب اغتنم الفرص . فإذا الجد تسانده نفس ، وإذا الفرص يهتبلها قلب .

وكأنى بكافور لم يتصور له هذا الأمل ، ولم يكبر فى نفسه هذا الطمع ، إلا بعد أن انفرد بمنجّم من المنجمين ينظر نَجمه،

وحين بشّره المنجم بأنه سوف يصير إلى رجل جليل القدر ، وأنه سوف يبلغ معه مبلغاً عظيما ، لفه ذاك الأمل الكبير واحتواه ذاك الطمع الجليل .

ولكنى على هذا لا أحب أن أجرد أبا المسك من نفسه ومن قلبه قبل وقفته تلك إلى المنجم ، فلو أنه لم يكن ذا نفس ولم يكن ذا قلب لها نت فى أذنيه كلمة المنجم ولظنها عبثاً من عبث الناس به . وما أظن أبا المسك سلم من كثير من هذا العبث . ولكن هذه الكلمة صادفت هوى من نفس أبى المسك ، ووقعت منه موقع الجد فآمن بها وتيقنها ، فإذا هو يخرج ما فى جيبه ليعطيه هذا المنجم .

وما كان هـذا الجيب الحقير يحوى غير شىء حقير ، ولكن هذا الحقير كان عزيزاً عند كافور عزّ الشىء العظيم عند من يملكون . فأخرج أبو المسك درهمين ، وكانا كل ما يحتفظ به ، وأعطاهما المنجم .

وضجر المنجم بأبى المسك وأخذ يبكته وهو يقول له :

أبشرك ببشرى عظيمة وتجازيني عليها دراهم قليلة ؟

ويحس كافور الخجل ، وما كان يملك غيره بعد الدرهمين ، فجاد منه بالكثير . وكان المنجم يمسك فى نفسه مزيداً من البشري كان ينتظر بأبي المسك ليرى ما عنـده من ثمن ، وحين رأى الرجل لا يملك غير ما أعطى ، لم يشأ أن يمسك ما أمسك ومضى يقول له : وأزيدك أنك سـوف تملك هذا البلد .

خبر من الأخبار نكاد نصدّقه ونكاد نكذبه . فلقد مر مثله لعمرو بن العاص حين وقعت الكرة فى حجره ، وما كانت الكرة تقع إلا فى حجر من يملك مصر ، ولقد مر مثله لابن طغج حين حام حول رأسه طائر معـروف ، وما كان هذا الطائر يحوم إلا حول رأس من يجاب إلى ما يتمنى ، وها هو ذا الخبر يصور صورة أخرى ، ليست كرة وليست طائراً ، ولكنها منجّم يقول .

ولكن الأخبار وإن نسجت كذباً هنا وهناك فهى تحمل

فى طياتها نواة من الصدق ، يدور حولها الخبر على صورة باطلة فى مجراها ولكنها حقّة فى مبعثها . ولقد كان أبو المسك يحمل تلك النواة ، ثم دار الناس حولها بتلك الأخبار . ولقد كان كافور يحمل هذا الباعث ، ثم حاك الناس حول هذا الباعث الأخبار .

وهؤلاء الذين تحدثوا عن كافور قالوا هذا الميل كان لا بد لهم من أن يُلهبوا خيالهم ، ومن أن يفسحوا لهذا الخيال المجال بأن يبعد ، لتستقيم فى رؤوسهم تلك الصورة العظيمة ، وليستوى تحت أعينهم مثال ذلك الخيال الذى خالوه .

فهم يقولون : إن أبا المسك جَرِب فاستبد به الحرب ، وضاق به سيده فطرده ، وإذا هو يهيم على وجهه فى الطرقات لا يجد ما يأكله ، وإذا هذا الجوع الملح يلجئه إلى أن يُلح على طباخ ليعطيه شيئاً يأكله ، وإذا هذا الطباخ يضيق بأبى المسك فيضربه بمغرفة فى يده ساخنة ضربة شديدة ، وإذا أبو المسك لا يقوى للضربة مع الجوع فيقع مغشياً عليه .

ويمر بأبي المسك رجل ذو قلب رحيم ، فيلين لأبي المسك ويرثى له ، ويحمله إلى داره يحنو عليه ويأسوه إلى أن يبرأ ، وإذا هو بعد هذا يعود به إلى سيده معافى لا يرجو على ما فعل جزاء .

هذا كله وشيء آخر غيره مما هو على مثاله يروونه عن أبي المسك ، قد يكونون فيه كاذبين وقد يكونون فيه صادقين ، فإن صدقوا ، فلقد صوروا لنا الرجل وما أسرفوا ، وإن كانوا من الكاذبين فلقد صوروا لنا الرجل وأسرفوا ، وما بنا أن نعدل عن أن الرجل كان على الحالين عظيما ، وكان ذا نفس وكان ذا قلب .

وما نشك في أن أبا المسك كان ذكيا وكان فطنا وكان لبقا ، أدرك فيه ذلك مولاه الإخشيد ، لم يدركه رجما بالغيب وإنما أدركه عن اختبار ، فإذا هو يقول بعد هذا الاختبار : والله لا ورث دولة ابن طغج غير هـــــذا العبد ، وهو يعني أبا المسك .

وما هـذه الـكلمة بقليلة على النفس أن تُحسها ، ولا هى يهينة على اللسان أن يقولها ؛ ولـكنها كلمة اعتلجت فى النفس فلم تقو النفس على الاحتفاظ بها ، ومشت إلى اللسان فلم يملك اللسان أن يجمد دون أن ينطق بها . ولو أنها كانت أملا من الآمال يسكن قلب الإخشيد ، أو أمنية من الأمانى تخالج فؤاد الإخشيد ، لقلنا أملا ملأ قلب الإخشيد ففاض عن ذلك القلب دون أن يعى ، ولقلنا أمنية من أمانى الإخشيد يلهج بها لسانه فيما يلهج . ولقد كان الإخشيد يحب أبا المسك لـكنه كان يحب أبناءه فوق حبه لأبى المسك ، وما كان الإخشيد يبغى إلا أن يرى أبا المسك حيث هو وأبناءه حيث هم ، وما نظنه بغى أن يرى أبا المسك والأمر له دون أبنائه ، وما نظنه رجا أن يسبق خطو أبى المسك خطو أبنائه . فحمل لأبى المسك هذا الأمل وتلك الأمنية . وما قال ما قال الإخشيد تمنيا ولـكنه قال ما قال يملى حسُّه ويغلب وجدانُه ، وما أملى حس الإخشيد عن عفو ولا غلب وجدانُه عن غير وعى .

ولكن أبا المسك لا شك كان قد ملك من الإخشيد هذا الحس ، وملك من الإخشيد هذا الوجدان . ومن علك هذا وذاك لن يكون رجلا من الرجال الكثيرين ولكنه يكون رجلا من الرجال القليلين . وهكذا كان أبو المسك من هؤلاء القلائل استطاع أن يجعل من يرجو الملك لأبنائه يكاد يرجوه له ، ومن يحمى للدفاع عن حق أبنائه يذل فى هذا الدفاع عن أبنائه ، ويراه العادى عليه والطامع فيه فلا يفعل شيئاً يدفعه به بل يكاد يؤيده عليه .

والرواة الذين ينقلون هذه الكلمة الوحيدة التى قالها الإخشيد فى كافور ، يروون حادثة وحيدة لكافور من تلك الحوادث التى حركت الإخشيد فيقولون : إن الإخشيد جلس يوماً للفرجة على فيل وزرافة ، وإذا عبيده كلهم قد شغلوا عنه بالنظر إلى الفيل والزرافة ، ولكن واحداً منهم لم يشغل مثلهم وظل نظره عالقاً بمولاه يخاف أن تبدو لمولاه حاجة إليه فيمنعه انشغاله عنه من أن يبادر إلى تلبيته .

وأدرك الإخشيد هذا من أبي المسك كما أدرك غيره من سائر عبيده ، ورأى ما كان من أبي المسك شيئاً لا يمر عفواً ولا شيئاً يأتي عفواً ، فامتلأت نفسه إعجاباً ، وإذا ملأ الإعجاب النفس نطقت لا تحتاط وقالت الحق لا تعدل به .

هذه الفعلة هي التي حركت الإخشيد إلى أن يقول : ليكونن لهذا العبد شأن . كما حرك غيرها الإخشيد إلى أن يقول كلمته الأولى ، وحين أحس من أبي المسك أنه حريص على أن يجمع أمر مولاه كله في يديه يكون له من دون المتصلين بمولاه . ويكاد يكون له من دون مولاه نفسه .

فالمؤرخون يروون أن الإخشيد اشتهى يوماً طعاماً ما ، وأبى أبو المسك إلا أن يحمل هذا الطعام إليه ، لا يحب أن يدع هذا لصاحبه . وكانت منزلة أبي المسك عندها قد جلت عن مثل هذا . ولكنه أحب أن يجمع للإخشيد شهوتين : شهوة بطنه إلى الطعام وشهوة نفسه إلى السيادة . والملوك يرضيهم أن تشبع نفوسهم قبل أن تشبع بطونهم . ويرضيهم

أن يحسوا فى شبع النفس فنوناً أشبه بفنون الطعام .

عرف هذا أبو المسك فلم يفته أن يحمل طبق الطعام إلى مولاه ليدخل السرور على نفسه بهذا الفن من الطاعة ، مع هذا السرور الداخل إلى بطنه بهذا الفن من الطعام .

ولقد كان أبو المسك يعرف أنه حين يبعد عن الإخشيد فى شىء يبعد منه فى أشياء ، وما لمثل هذا يجرى أموره الطامع . ولقد كان أبو المسك طامعاً فلم يحب أن يبعد عن الإخشيد فى شىء ما ، لا يرى فى كل ما يحقق طمعه نكراً أو عيباً ، وإنما يرى النكر والعيب فى أن تغمض عيناه عن شأن من شئون الإخشيد .

وهكذا حرص أبو المسك على أن يملأ على الإخشيد يقظته ، فإذا الإخشيد تمتلىء نفسه بأبى المسك منامه ، فلا يأوى إلى مضجعه حتى يراه ، ويراه فى منامه صورة مما رآه فى يقظته . فلقد روى الراوون للإخشيد أنه رأى فى المنام كأنه أسلم إلى غلام من كبار غلمانه شيئاً فلم يقم به ،

فنقله إلى غيره فلم يقم به ، وهكذا ظل ينقله من غلام إلى غلام حتى أسلمه آخر الأمر إلى أبي المسك فقام به

لا يعنينا بعد هذا ما يقوله الراوون من أن الإخشيد قص هذه الرؤيا على مفسر من مفسري الأحلام ، وأن هذا المفسر للأحلام قال للإخشيد : إن هذا الملك يؤول إليه ، يعني أنه سيؤول إلى أبي المسك .

لا يعنينا هذا ولكن يعنينا ما يدل عليه هذا المنام إن صح ، من أن أبا المسك استطاع أن يملأ على الإخشيد يقظته ومنامه ، أو قل : استطاع أن يملك حياة الإخشيد بشقيها ليملك بعد ذلك الملك بيديه .

من أجل ذلك قلنا : إن أبا المسك لم يكن عن جَدّ كل ما أصاب ، وإنما ساندت حيلته جده ، فإذا هذه الحيلة تدفع الجد دفعاً ، وإذا هذا الجد يدفع الحيلة دفعاً ، وإذا هو آخر الأمر سلطان على مصر .

وإن الذى وصل به أبو المسك إلى الملك هو الذى ثبت
به أبو المسك هذا الملك ، وكما أرضى أبو المسك مولاه
الإخشيد بطاعته له فملأ عليه قلبه ، أرضى أبو المسك الناس
من حوله بلينه وعطفه فملأ عليهم قلوبهم ، وكما أحب الإخشيد
أبا المسك فقربه منه أحب الناس أبا المسك فقربوا منه ، وكما
استسلم الإخشيد لأبى المسك فسلم إليه أمره استسلم الناس
لأبى المسك يسلمون إليه أمرهم ، وكما أنسى الإخشيد عبودية
أبى المسك فلم تحل بينه وبين أن يراه على أمره كله يراه به
جديراً ، كذلك أنسى الناس عبودية أبى المسك فلم تحل
بينهم وبين أن يروه سلطاناً عليهم جديراً بأمرهم كله .

وشغل المصريون بآخر الأمر وأنسوا أوله ، شغلوا
بآخرة أبى المسك وأنسوا أولاه ، لم يذكروا لهذا الرجل
ماضيه وإنما ذكروا له حاضره . وحين قاسوا ذاك الماضى إلى

هذا الحاضر وجدوا أن هـذا الماضى لا يفارق كثيراً ماضى سيده ، ولقد رضوا ماضى ذاك فما بالهم لا يرضون ماضى هذا ، وحين رضوا ماضى الأول رضوه لأنه جزء من التجربة التى دخلوا فيها ، وكان عليهم أن يرضوا ماضى الثانى لأنه تتمة للتجربة التى دخلوا فيها ، وبعد هذا فلقد أحسوا أن الأول كان أبعد من قلوبهم بجشعه وظلمه ، وأن الثانى أقرب إلى قلوبهم بكرمه وعدله ، فأعطوه مالم يعطوا سابقه ليعطيهم هو مالم يعطهم إياه سابقه . وكان المصريون يحبون أن يرخوا للتجربة حرصاً منهم على ألا تضار الخلافة فتضار قضيتهم العامة ، وحرصاً منهم على شيء من الأمن تستقيم فى ظله حالهم شيئاً بعد هذه البلبلة المتصلة ، لا يعنيهم كثيراً هذا الشأن الخاص للسلطان الذى لم يختلف عن غيره ، تاركين أمر هذا للخلافة كما تركوا أمر غيره للخلافة ، فما كان لهم فيما مضى رأي ليكون له فيما جد رأى ، وما أحبوا أن يخرجوا على الأولى حتى لا يضاروا قضيتهم العامة ، وما أحبوا

أن يخرجوا على الثانية حتى لا يضاروا قضيتهم العامة ؛ والتفوا حول أبى المسك يحبون أن يعينوه على رفقه ، وأن يعينوه على عدله ، وأن يعينوه على إسماحه، ليجعلوا منه سلطاناً كما يحبون لسلطانهم أن يكون ، وليجعلوا منهم رعية كما يحبون للرعية أن تكون ، ومضت الأيام بينهم وبين أبى المسك رخاء كلها يعطيهم ويعطونه ، فلقد كان أقرب إلى قلوبهم ، وكانوا هم أقرب إلى قلبه ، لا ندرى أكان ذلك من أبى المسك دهاء ليشغل الناس بحاضره عن أن يذكروا ماضيه ، أو كان ذلك خُلقه فأملى عليه ذلك الخلق .

وسواء أكانت هذه أم تلك فلقد كان أبو المسك غير الإخشيد ، وغير ابنى الإخشيد أونوجور وعلى ، كان غير هؤلاء جميعاً رفقاً بالناس، وقرباً من الناس ، وعدلا بين الناس، وذكراً للناس .

فلقد كان سماط أبى المسك الذى يمد مع كل يوم لمن حوله

ينالون منه طعاماً وربما شيئاً كبيراً لا يعيه خيال . يصوره المؤرخون هذا التصوير الرائع فيقولون : إنه كان يحوى مائتى خروف من الخراف الكبيرة ، ومائة خروف من الخراف الصغيرة ، ومائتى وخمسين إوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف طير من الحمام ، ومائة صحن من الحلوى ، وكل صحن عشرة أرطال ، ومائتين وخمسين قربة من شراب الليمون المحلى بالسكر .

هذا كله كان يحويه سماط أبى المسك ، وهذا كله كان يقدم للآكلين مع كل يوم ، وهذا كله كان يطعمه الناس يوماً بعد يوم ، لا يعنينا من كان الآكلون والطاعمون فما نظن هذا السماط إلا اتسع للكثيرين ، وإلا نال منه الكثيرون ، من فاته حظه فى يوم لم يفته فى يوم .

وما نظن كافور قصد بهذا السماط غير أن يشيع فى الناس كرمه ، ويشيع فى الناس جوده ، وما نظنه قصد إلا أن يجمع الناس كلهم حوله ، وأن ينال الناس كلهم من كرمه ،

وما نظنه كان يقصد أن يخص المتميزين.

فلقد حدث المؤرخون أنه كان يرسل كل ليلة عيد حِمله بغل من المال فى صُرر، مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له، من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج.

كما حدثوا أنه كان يرسل كل عام من المال والطعام والثياب شيئاً كثيراً مع الحجاج ليوزع فى الحجاز على المعوذين وآل البيت.

وأكبر الظن أن أبا المسك كما انطوت نفسه على أمل كبير انطوت على خير كثير، وحين بلغ أمله الكبير فاض عنه خيره الكثير، رأى هذا الخير كفاء بلوغ هذا الأمل، فانبسطت يده ينفق مما آتاه الله، وانبسطت نفسه يؤنس الناس كما آنسه الله، لا يذكَّر بمعروف إلا فعله، ولا يذكُر هو معروفا ما إلا فعله.

ولعلك لم تغب عنك قصته مع ذلك المنجم، ولعلك لم يغب عنك ما أعطاه هو للمنجم، وما كان المنجم يطمع فيه.

ولقد حكى الراوون أن أبا المسك بعد أن انتهى إليه هذا الملك الذى بشره به المنجم، نام ليلة فرأى هذا المنجم فى منامه يقول له : لم نفترق على هذا . يعنى المنجم أن أبا المسك قد وعد المنجم حين فارقه عاجزاً عن أن يزيد فى أجره أن يعوضه عما كان إن نال ما رآه له المنجم.

وحين أصبح كافور لم ينس ما رأى فى منامه، ولم يشأ أن يهمل ما ذكر فإذا هو يجد فى البحث عن ذاك المنجم . وبعد بحث طويل عرف أن ذلك المنجم قد خرج من دنياه ليلقى ربه . وكان الظن بأبى المسك أن ينتهى عند هذه وحسبه ما كان . ولكنه جد يسأل عن أولاده ، فإذا هو يعرف أن له ابنتين، إحداهما زوجة والأخرى عذراء . فأمر فاشتريت لهما دار وأمر بأن تعطى العذراء مائتى دينار لعرسها .

أرأيت إلى أبى المسك كيف ذكر الخير حيث ينسى غيره، ثم أرأيت إليه كيف جازى على الخير حيث يهمل غيره ، ثم أرأيت إلى رأيى فيه . أن تحقيق هذا الأمل الكبير طبعه

على خير كثير .

ومن الناس من يَنبهون بعد ضعة فيستأسدون ، و يعزون بعد مهانة فيتنكرون ، ويملكون بعد عدم فيجحدون، يفعلون هذا لأنهم لم يحملوا نفوساً سليمة ولا قلوباً بريئة ولا أفئدة نقية ، ولكن أبا المسك كان سليم النفس برىء القلب نقى الفؤاد فلم يستأسد ولم يتنكر ولم يجحد ، بل كان فى نبوهه كما كان فى ضعته، وكان فى عزه كما كان فى مهانته ،وكان فى ملكه كما كان فى عدمه ، رجلا من الرجال لم تُبطره النهمة ولم يستشر مع السلطان .

يروون أن علويا من العلويين — هو أبو جعفر مسلم ابن عبيد الله بن طاهر — كان يساير أبا المسك يوماً ، وخلفهما بغال عليها أمتعة ومال ، وفيما هما ماضيان سقطت مقرعة لأبى المسك ولم يرها أحد من خدم أبى المسك ولا من حاشيته ، ورآها هذا العلوى ، فنزل عن دابته مُسرعاً وأخذها ليسلمها إلى كافور .

وما كان على كافور من شيء إن سكت على هذه ولم يقل شيئاً ، فلقد كان سلطاناً وكان العلوى واحداً من الرعية ، وما فعل العلوى غير ما يجب على مثله لسلطانه . ولكن أبا المسك كان يذكر نفسه فيُحسن هذا الذكر ، وكان يعرف أن حقه على الناس سلطاناً لا يبلغه أن يسخّرهم فى غير ما يفرضه عليهم هذا السلطان ، وكان يرى للناس أقداراً لا يبلغ أن ينال منها سلطانه ، وكان يقدر أهل البيت قدراً يهون أمامه سلطانه . فما كاد يحس ما فعله العلوى معه حتى بكى وذل وهان ، وحتى أخذ يعتب على العلوى فعله به وهو يقول : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ما ظننت أن الزمان يبلغنى إلى أن يُفعل بى هذا . وحين بلغ أبو المسك قصره ، وودّعه العلوى أرسل أبو المسك فى إثره البغال بما عليها من متاع ومال . ويقولون إن ذلك كله كان يقوّم بما يُربى على خمسة عشر ألف دينار .

ما فعل هذا أبو المسك ليدفع عن نفسه نقصاً ، فما نظن

الرجل كانت تعنيه هذه فى مثل منزلته التى بلغها ، وما نظنه إن كان فعلها لهذا الدفع كان ملزماً بهذا كله ، فكان ملزماً بأن يبكى ، ثم كان ملزماً بأن يعتذر ، ثم كان ملزماً بأن يسوق ما ساق ، ولقد كان فى واحدة من هذا كله ما يغنى ، بل لقد كان فيما دون واحدة من هذا كله ما يغنى ، ولكن الرجل حين استجاب الله لأمله الكبير استجاب هو للخير الكثير ، يجمل هذا كفاء هذا وشكره .

لم يفرّق كافور فى خيره بين عدو وصديق ، بل لقد علت نفسه عن هذا الذى يحسه الناس فلا يعطون إلا حين يميلون ، ويمنعون حين ينفرون ، فعل ذى النفس التى لم تَسْمُ عن درن الحياة ، تعطى مغرضة وتمنع مغرضة والنفس حين تصفو ترى أولى الناس بخيرها عدوها ، فهى لم تخسره عدواً إلا عن عيب فيها لا فيه ، ولو أنها سلمت من هذا العيب سلم لها عدوها وكسبته صديقاً .

وهكذا كان أبو المسك حين ساقوا إليه قاصًّا ، كان.

يقف إلى الناس يقص عليهم من قصصه ويعرّض بكافور ويقول : انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى ، فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ، ابن بويه ببغداد ، وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر ، وهو خصى .

ولقد كان فى طوق أبى المسك أن يبطش بهذا القاص ، وهو مالك عذره . وما كان عليه فى ذلك إن فعل من حرج ، ولكن أبا المسك فيما أظن كان ذا نفس صافية ، يشفق على عدوه قبل أن يشفق على صديقه . ولقد عجب هؤلاء الذين ساقوا إليه هذا القاص وأخبروه بما سمعوا منه ، عجب هؤلاء لكافور حين رأوه يخلع على هذا القاص ويكافئه بمائة دينار ، وعجب هؤلاء حين استمعوا لكافور يقول : ما قال هـذا إلا لجفوتى له .

ولقد صدق ظن أبى المسك وصدق حدسه ، فلقد استمع الناس إلى هذا القاص بعد الذى كان من أبى المسك إليه ، فإذا هم يسمعونه يقول : ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة :

لقمان و بلال المؤذن وكافور .

بهذه النفس التى امتلأت شكراً لله كان يجلس أبو المسك للناس صباحاً ومساء يقضى حوائجهم ، وبهذه النفس التى امتلأت شكراً لله كان أبو المسك حين يفرغ من قضاء حوائج الناس يتهجد ويسجد لله وهو يقول : اللهم لا تسلط علىّ مخلوقاً . وبهذه النفس التى امتلأت شكراً لله لقى أبو المسك ربه فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، بعد أن انفرد بهذا الحكم سنتين وأربعة أشهر .

خرج من دنياه هذه القصيرة بهذه الأعمال الكثيرة ، يروى له التاريخ صفحاته الأولى فنسمعها مهونين ، ويثنى بالثانية فنطالعها خائفين ، ويختمها بصفحاته الأخيرة فنقرؤها راثين داعين .

والرجل أصدق ما تدل عليه صفحاته حين يستقل بأمره كله ، لا يكون محمولا عليه ولا منازعاً فيه ، ولقد كان كافور مع مولاه الإخشيد هذا المحمول على أن يفعل »

وكان مع ولدى الإخشيد ، أونوجور وعلى منازعاً فيما يفعل ،
وحين آل الأمر إليه كان غير محمول على شيء ولا منازع فى
شيء فخلا له أمره كله ، واستقل بأمره كله ، فإذا هو يجلى
عن طبيعته الحقة ، و نفسه الصادقة .

ولقد دخل هذا الرجل — أعنى أبا المسك — على حياة هذه الدولة الإخشيدية فشغل به الدولة والمشغولين بهذه الدولة إحدى وعشرين سنة ، تزيد قليلا ، وحين خرج هـذا الرجل من حياة هذه الدولة خرجت بخروجه حياتها ، فإذا هى لا يشغل بها أحد وإذا هى ذكرى وعبرة .

وفى الحق لقد استأثر كافور بتاريخ هذه الدولة ، حين كان لها تاريخ ، فلقد عاشت فى الحكم أربعاً وثلاثين سنة ، زحمها أبو المسك على إحدى وعشرين منها ، كان إليه معها تدبير الملك ، كما زحمها على سائر سنواتها الأولى كلها أو بعضها ، كان إليه فيها تدبير أمر مولاه ، قضى منها شيئاً — لا ندرى أقليلا كان أم كثيراً — يمهد به ليدخل إلى قلبه بعد أن دخل إلى حياته ، وحين دخل إلى قلب مولاه دخلت حياة مولاه فى حياته ، فإذا أبو المسك يجمع حياتين ،

وإذا مولاه يقضى به أموره ، إذ كان أبو المسك يده كما كان فكره .

ونكاد نقول: ما حكمت هذه الدولة ولكن حكم كافور؟ ونكاد نقول : إن هذه الدولة ما جاءت إلا لتمهد لكافور .

عاش ملوكها وعاش كافور ، فإذا هؤلاء الملوك لم يملؤا الوجود كما ملأه كافور ، ولم يشغلوا لسان شاعر بهم كما شغل كافور لسان أبى الطيب المتنبى ، لا يعنينا أنه ذمه بعد أن مدحه ، ولكن يعنينا أن المتنبى أبقى اسم أبى المسك بعد مماته شيئاً مذكوراً ، كما جعل اسم كافور فى حياته شيئاً مذكوراً ، وعرف الناس أن أبا المسك رجل من الرجال الذين لهم وجود شاغل ، قد يكون كله حقا إن صدّق الناس المتنبى فى مدحه إياه وكذبوا هجاءه ، وقد يكون زيفاً من الزيف إن صدق الناس هجاء المتنبي إياه وكذبوا مدحه . وأغلب الظن أن المتنبي أنصف أبا المسك حين مدحه ولم ينصفه حين هجاه . ينصرنا فى هذا الظن ذلك الشعر الذى نُقش على قبر هـذا

الراحل بعد أن خلّف الحياة وأصبح سيرة يُغرى الناس بها مدحا أو ذما ، ليس ما يرغبون ولا ما يرهبون ، فيظن بالقائل الظنون . وهذا الذى وجد من شعر على قبر هذا الراحل يصدق المتنبي فى مدحه ويكذبه فى هجائه ، إذ هو كلمة صدرت عن غير هذا الهوى الذى أرضى المتنبي حيناً وأسخطه حيناً . فلقد وجد مكتوباً على قبر كافور بالقدس ، وكان قد حمل جثمانه إلى القدس ليدفن هناك :

ما بال قبرك يا كافور منفردا
بالصّحصح المرت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك أحاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

كما وجد مكتوباً على قبره :

انظر إلى غِير الأيام ما صنعت
أفنت أناساً بها كانوا وما فنيت
دُنياهم ضحكت أيام دولتهم
حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت

(١٨)

وحين خرج كافور من حياة الملك دخل إلى حياة الملك أحمد بن على بن الأخشيد ، وكانت سنه يوم أن ولى إحدى عشرة سنة .

وفى مثل هذه السن أو قريباً منها ولى أونوجور ، ولكنه وجد إلى جانبه مثل أبى المسك فلم تثقل عليه الحياة ولم تثقل عليه أعباء الملك .

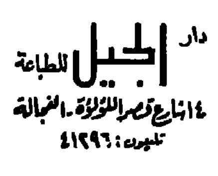
ومضى أحمد بن على فى تلك الحياة المدلهمة يخطو على غير هدى ، وإلى جانبه وزيره أبو الفضل جعفر بن الفرات ، يسئ ولا يحسن ، وإذا هو يقسو على قوم ويعنف ، وإذا بعض من قسا عليهم وعنف يفرون عنه إلى المغرب ليمهدوا للفاطميين أن يدخلوا مصر ، وليستحثوا جوهراً على أن يعجل .

وإذا أيام أحمد تمضى مضطربة ، وإذا بالجيوش الفاطمية تدخل عليه سلطانه وما أمضى فيه غير عام وثلاثة أشهر ،

وإذا هو مقبوض عليه ، وإن القدر الذى سلبه الملك سريعاً سلبه الحياة سريعاً ، فمات بعد قليل .

وانطوت بموته آخر صفحة من حياة هذه الدولة ، كما انطوت بموته تجربة من تلك التجارب التى عاشتها مصر تعطى فيها ولا تأخذ ، تؤثر قضيتها العامة على قضيتها الخاصة ، لا عن ضعف ولكن عن رأى ، عدا دور التفكير فيه إلى دور الإيمان به ، فانحدر من الرأس إلى القلب ، وغدا الناس يُعلون عن عاطفة تغلبهم على عقولهم ، وإذا هم راضون لأنهم يحبون .

تم بحمد الله


دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٩٦ ١٢ ٩٦ ٤١٢٩٦